المُدْهِشَاتُ

منتخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

رحمنا الله جميعًا وإياه

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

عامله الله بعفوه وغفرانه



مُقَدِّمَة

الحمد لله المنعم علينا بجزيل الإحسان، وغزير النعم الحسان، فطرنا على الإيمان، وهدانا للإسلام، وخصّنا بسيّد الأنام، ومحكم القرآن، وعلمنا البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في خلقه ولا ملكه ولا تدبيره ولا أسمائه ولا أوصافه ولا أفعاله ولا ألوهيته من جميع الأكوان، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وصفيّه وخليله وكليمه وكريمه، لم يترك خيرًا إلا حثنا عليه، ولا شرًا إلا حذرنا منه، إجمالًا أو تفصيلًا، اللّهم صل وسلم وبارك وأنعم عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. أما بعد:

فإن الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥١٠ـ ٥٩٧هـ) وقد حُقَّ له أن يُلقَّب بواعظ الإسلام، والذي قال عنه الحافظ الذهبي: «الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي القرشي، التيمي البكري، البغدادي الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف» قد طرحت له المعاني فكان يختار منها الجميل بسبك المباني، وينثر أصناف الفوائد وأصداف الفرائد حتى ضرب الناس عنه بعطن، ومن أرق وأجمل وأمتع كتبه ـ التي فاقت ألف مجلد ـ كتاب المدهش الذي حظي بثناء الأكابر والأجلّة، من العلماء والعباد والزهاد، ونقلوا عنه كثيرًا في مصنفاتهم، وهو

كتاب موضوعه الوعظ والتذكير، والتزهيد في الدنيا، والاستعداد للدار الآخرة، وقد بلغ المنتهى والغاية من كلام البشر، لولا هنّات فيه، كبعض لوثات المتصوفة، وقليل من الأخبار المكذوبة على بعض الصالحين ـ وغير قليل من تكلف السجع ومدح النفس، رحمه الله وغفر له وأروى قبره رضوانًا ونعيمًا، وإيانا ووالدينا ـ الكاتب والقارئ ـ آمين.

وقد انتخبت منه منتخبات، أظنها واسطة عقود فصوله ودرر تيجان أبوابه مع حذف بعض الأبواب التي تليق بالكتب المتخصصة مع قليل تصرف، والله المسؤول أن يغفر لنا وله وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء والأموات، وقد سميته (المدهشات) سائلًا ربي أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله من الباقيات الصالحات إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

٥/ ٦/ ١٤٣٣

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي لا منتهى لعطاياه ومنحه[1] حمدًا يقوم بالواجب من شكره ومدحه، وصلى الله على أشرف نبي وأنصحه، وعلى أصحابه وعلى آله وأزواجه ما استنّ طِرْفٌ في مرحه[2].

اعلم أن لغة العرب واسعة، ولهم فيها التصرف الكثير.

فتراهم يتصرفون الواحدة بالحركات، فيجعلون لكل حركة معنى كالحِمْل والحَمْل، والرُّوح والرَّوْح.

وتارة بإعجام: كالنضح والنضخ[3] والقبضة والقبصة[4] والمضمضة والمصمصة[5]، وتارة يقلبون حرفًا من كلمة ولا يتغير عندهم معناها، كقولهم: صاعقة وصاقعة، وجَبَذ وجذب، وما أطيبه وأيطبه، وربض ورضب، ولعمري ورعملي، واضمحل وامضحل، وسبسب وبسبس.

---

(١) الأصل المطبوع بعناية عبد الكريم محمد منير تتّان، وخلدون عبد العزيز مخلوطة، نشر دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، وقد كفياني مؤنة كثير من غريب الألفاظ وتخريج الأحاديث جزاهما الله خيرًا.

(٢) استن: جرى بنشاط. طرف: الفرس الكريم الأبوين، مرحه: النشاط أو المراح.

(٣) بالمهملة الكميّة أقل.

(٤) بالمهملة في الأصابع، وبالمعجمة في الكف.

(٥) بالمعجمتين ملأ الفم، وبالمهملتين بطرف الشفاه.

وتختلف الأسماء باختلاف أحوال المسمى:

ففي المنازل: إن كان من مدر قالوا: بيت، والوبر: بجاد، والصوف: خباء، والشعر: فُسطاط، والغزل: خيمة، والأدم: قِشَع.

والأوطان: وطن الإنسان، وعَطن البعير، عرين الأسد، وجار الذئب والضبع، كِنَاس الظبي، عُش الطير، قرية النمل، كُوّر الزنابير، نافقاء اليربوع.

ويقولون: عَدا الإنسان، أحْضَر الفرس، أرقل البعير، عسَّل الذئب، مَزَع الظبي، زَفَّ النعام.

ويقولون: طَفَر الإنسان، ضَبَر الفرس، وثب البعير، قفز العصفور، طمر البرغوث.

وفي أسماء الأولاد: ولد كل سبع جرو، وذي الريش فَرْخ، والوحشية طفل، والفرس مُهر وفُلو، والحمار جحش وعفو، والبقرة عجل، والأسد شبل، والظبية خِشْف، والفيل دغفل، والناقة حوار، والثعلب هجرس، والضب حسل، والأرنب خِرِنْق، والنعام رَأْل، والدب ديسم، والخنزير خَنَّوْص، واليربوع والفأرة دِرْص، والحية حَرِيش.

وفي الضرب: بالراح على مقدم الرأس صقع، وعلى القفا صفع، والوجه صك، وعلى الخد ببسط الكف لطم، وبقبضها لكم، وبلكتا اليدين لدم، وعلى الذقن والحنك وهز، وعلى الجنب وخز، وعلى الصدر

والبطن بالكف وكز، وبالركبة زبن، وبالرجل ركل، وكل ضارب بمؤخرة من الحشرات لسع، وبفيها لدغ.

وفي الكشف: حسر عن رأسه، سفر عن وجهه، افترّ عن نابه، كشّر عن أسنانه، أبدى عن ذراعيه، كشف عن ساقيه، هتك عن عورته.

وفي الجماعات: موكب فرسان، كبكبة رجال، جوقة غلمان، لمّة نساء، رعيل خيل، صرمة إبل، قطيع غنم، سرب ظباء، عَرْجلة سباع، عصابة طير، رجل جراد، خشْرم نحل.

وفي الامتلاء: بحر طام، نهر طافح، عين ثرّة، إناء مفعم، مجلس غاصّ بأهله.

وفي اللين: ثوب ليّن، رمح لدن، لحم رخص، ريح رخاء، فراش وثير، أرض دَمِثة.

وفي المطر: أوله رش، ثم طش، ثم طل، ورذاذ، ثم سح، ثم نضح، ثم هطل، وتهتان، ثم وابل وجود.

فإذا أحيا الأرض بعد موتها فهو الحيا، وإن جاء عقيب المحل أو عند الحاجة فهو الغيث.

وفي الأصوات: رغا البعير، وجرجر وهدر، وقبقب، وأطلت الناقة، وصهل الفرس، وحمحم، ونهم الفيل، ونهق الحمار، وسَحَل، وسَجِح البغل، وخارت البقرة، وجأرت، وثاجت النعجة، وثغت الشاة ونعَرت،

ووعوع الذئب، وعزفت الجن.

المراهق من الغلمان بمنزلة المُعصر من الجواري.

والحزوّر بمنزلة الكاعب.

والكهل بمنزلة النّصف من النساء.

والقارح من الخيل بمنزلة البازل من الإبل.

والعجل من البقر، والشادن من الظباء، كالناهض من الفراخ.

البكر من الإبل بمنزلة الفتى، والقلوص بمنزلة الجارية، والجمل بمنزلة الرجل، والناقة بمنزلة المرأة، والبعير بمنزلة الإنسان.

وللعرب في ألفاظها عام وخاص:

فالبُغض عام، والفَرْك بين الزوجين خاص.

والنظر إلى الأشياء عام، والشَّيْم إلى البرق خاص.

الصراخ عام، والواعية على الميت خاص.

السير عام، والسُّرى بالليل خاص.

الهرب عام، والإباق للعبيد خاص.

مسميات بشروط:

لا يقال مائدة إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فهي خِوَان.

ولا للعظم عِرْق إلا ما دام عليه لحم.

ولا كأس إلا إذا كان فيه شراب، وإلا فهي زجاجة.

ولا كوز إلا إذا كان له عروة، وإلا فهو كوب.

ولا أريكة إلا للسرير إذا كان عليه قبة، وإلا فهو سرير.

ولا خدر إلا إذا كان فيه امرأة، وإلا فهو ستر.

ولا للمرأة ظعينة إلا إذا كانت في الهودج.

ولا عهن إلا إذا كان مصبوغًا، وإلا فهو صوف.

ولا وقود إلا إذا اتقدت فيه النار، وإلا فهو حطب.

ولا رَكِيَّة إلا إذا كان فيها ماء، وإلا فهي بئر.

ولا نفق إلا إذا كان له منفذ، وإلا فهو سَرَب.

ولا لسرير نعش إلا ما دام عليه الميت.

ولا للخاتم إلا إذا كان عليه فص.

ولا بدنة إلا للتي تجعل للنحر.

ولا ركب إلا لركبان الإبل.

ولا هضبة إلا إذا كانت حمراء.

ولا غيث إلا إذا جاء في إبّانه، وإلا فهو مطر.

زوجات الرسول ﷺ:

تزوج خديجة ثم سَوْدة ثم عائشة ثم حفصة ثم أم سلمة ثم جويرية ثم زينب بنت جحش ثم زينب بنت خزيمة ثم أم حبيبة ثم صفية ثم ميمونة رضي الله عنهن، فماتت خديجة وزينب بنت خزيمة في حياته، وتوفي عن التسع البواق. صلى الله وسلم عليه وآله.

تسمية من جمع القرآن وحفظه على عهد رسول الله ﷺ:

عثمان بن عفان، أبيّ، معاذ، أبو الدرداء، زيد بن ثابت، أبو زيد الأنصاري، قال ابن سيرين: وتميم الداري، قال القرطبي: وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب.

قلت ـ إبراهيم ـ: وغالب الظن أن منهم الخلفاء الأربعة فقد كان الشيخان لا يفارقانه سفرًا وحضرًا، وصحّ عن عثمان أنه قام بالقرآن كله في ركعة، أما علي فقد عاصر التنزيل من أوّله، فالأربعة هم أولى الناس بجمعه، ولعل ترك إيرادهم لظهور العلم بهم رضي الله تعالى عنهم.

من تأخر موته من الصحابة:

آخر من مات من أهل العقبة: جابر بن عبد الله، ومن أهل بدر: أبو اليسر، ومن المهاجرين: سعد بن أبي وقاص، وآخر من مات بمكة: ابن عمر، وبالمدينة: سهل بن سعد بن معاذ، وبالكوفة: عبد الله بن أبي أوفى، وبالبصرة: أنس، وبمصر: عبد الله بن الحارث، وبالشام: عبد الله بن

بسر، وبخراسان: بريدة، وآخر من مات ممن نظر إلى رسول الله ﷺ: أبو الطفيل بن عامر بن واثلة.

أوليات في الجاهلية:

أول من سيّب السوائب: عمرو بن لحي.

أول من سن الدية مئة من الإبل: عبد المطلب.

أول من قطع في السرقة، وقضى بالقسامة، وخلع نعليه عند دخول الكعبة: الوليد بن المغيرة.

أول من قضى في الخنثى من حيث يبول: عامر بن الظرب.

أول عربي قسم للذكر مثل حظ الأنثيين: عامر بن جشم.

أسماء تطلق على الرجال والنساء:

أمية، عمارة، فضالة، طلحة، هند، هبة الله، أسماء، بركة، بريدة، جويرية، حميضة، الرباب، زيد، عصيمة، علية، عميرة.

عجائب الأقرباء نسبًا وحالًا:

أربعة تناسلوا، رأوا رسول الله ﷺ: أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه عبد الرحمن، وابنه محمد.

أربعة إخوة كان بين كل واحد منهم وواحد عشر سنين: أولاد أبي طالب: طالب وعقيل وجعفر وعلي.

امرأة شهد لها بدرًا سبعة بنين مسلمين وهي عفراء بنت عبيد.

امرأة ولدها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير والحسين وابن عمر هي حفصة بنت محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان.

❁❁❁❁❁

المواعظ بالقصص

في قصة آدم عليه السلام:

خلق الله آدم عليه السلام آخر الخلق، لأنه مهد الدار قبل الساكن، وأقام عذره قبل الزلل، بقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٠] فظنت الملائكة أن تفضيله بنفسه، فضنّت بالفضل عليه، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ فقوبلوا بلفظ ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾.

فصوَّره وألقاه فلما عاين إبليس تلك الصورة، بات من الهم في صَوْره[1]، فلما نُفخ فيه الروح بات الحاسد ينوح.

ثم نودي في نادي الملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فتطهروا من غدير ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وغودر الغادر بخسًا بكبرياء ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ [ص: ٧٦] ثم حام العدو حول حمى المحمي، فلولا سابق القدر ما قَدِر على آدم.

فلما نزل إلى الأرض، خدَّ خدَّ[2] الفرح بمدمع الترح[3].

---

(١) الصّوْرة: إرادة الحكة في الرأس.

(٢) خدّ الأولى: صفر، خد الثانية: خدّ الوجه.

(٣) الترح: الحزن.

يا آدم لا تجزع من كأس خطأٍ كان سبب كيسك، فلقد استخرج منك داء العجب، وألبسك رداء النسك «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم**»[1].

لعلّ عتبك محمودٌ عواقبه وربما صحّت الأجساد بالعلل

۩ في بناء الكعبة:

لما هاجر الخليل بهاجر وابنها، أوضع[2] بهما فوضعهما هنالك، وتولى راضيًا بمن تولاه يوم ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فقالت هاجر: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فرجعت متوكئة على منسأة التوكل[3] على من لا ينسى، فلما نفد الزاد واللبن، انطلقت لتبذل الجهود في مأمور ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] فصعدت بأقدام الصفا على الصفا، وأطلّت الطلّة[4]، ثم جرت، ثم وسّعت خطاها، ثم أتت المرأة المروة، وعادت إلى الصفا سبعًا، فلذلك أمر المكلف أن يسعى، ونزل الملك ليزيل النازلة، فهيأ نزل النزيل النزيه، فزمزم ماء زمزم[5]، فمرت رفقة من جرهم، فجرّهم سؤال ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فأقاموا.

---

(١) رواه أحمد، وتمامه: «يذنبون فيغفر لهم».

(٢) أي أسرع.

(٣) المنسأة: العصا.

(٤) الطلل: المكان المرتفع، والطلّة هي المرأة، وهي هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) زمزم: أي صوت متتابع، كناية عن تفجره بركضة جبريل عليه السلام.

واشتاق الخليل إلى ابنه، فاستاق راحلة الرحيل، وأُمر ببناء البيت ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٢٦] فكان استراحة البنّاءِ المُعَنَّى ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧] فلما فرغا، فغرا فمَ السؤال، يرتشفان ضرعَ الضراعة ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

فلما شرُفت الكعبة بإضافة ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] قصدها فوج الفيل فَفَيَّل[1] مرادهم، لما باتوا على ما بيتوا، أقبل الطير الذي رمى كالغمام، فكانت قطرته للحصاد لا للبذر، فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم، ليكون معجزة لظهور ابن هاشم.

في قصة نوح عليه السلام:

لما عمّ أهل الأرض العمى عمّا خُلقوا له، بُعث نوحٌ لجلاء أبصار البصائر، فمكث يداويهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فَلَاحَ عدم فلاحهم، فولّاهم الصّلا[2] إياسًا من صلاحهم، وبعث شكاية الأذى في مسطور ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١] فأذّنَ مؤذّن الطرد ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فقام نوح في محراب ﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] فأتته رسالة ﴿أَنِ اصْنَعِ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ونادى بريد الإعلام بالغضب ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾ [هود: ٣٧] فلمّا انهال كثيب الإمهال،

(١) يقال: فيّل رأيه: ضعّفه وخطّأه.

(٢) الصلا: وسط الظهر، أي أعرض عنهم.

وانقطع سلك التأخير، غربت شمس الانتظار، فادلهمّت عُقابُ[1] العِقاب، فلما انسدلت الظلمة، وفاتَ النّور ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] فقيل: يا نوح قد حان الحَيْنُ[2] فاحمل ﴿فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] فتخلّف خُلْفٌ من ولده، فمدّ يد الحنوّ ليأخذه بيده ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] فأجاب عن ضمير خائض في المساوي ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾ [هود: ٤٣] فرد عليه لسان الوعيد: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ [هود: ٤٣].

في قصة عاد:

لما تجبّر قوم عاد في ظِل ظُلل ضلالهم حين أملى الأمل وطول البقاء، وزُوي ذكر زوالهم، رافلين[3] في حُلل الغفلة بالأمنية عن المنيّة، إذ أقبل هود يهديهم ويناديهم في ناديهم ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥] فبرزوا في عُتوِّ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فسحب سحاب العذاب ذيل الإدبار، فظنوه لمّا اعترى عارض مطر، فتهادوا تباشير البشارة بتهادي ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فصاح بلبلُ البلبالِ[4] فبلبل[5]: ﴿بَلْ هُوَ مَا

(١) العُقاب: الحرب.
(٢) الحين: الموت والهلكة.
(٣) رافلين: متبخترين.
(٤) البلبال: شدة الهم والوسواس.
(٥) بلبل: فرّق وبدّد.

ﭐسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فكان كلما دنا وترامى، ترى ما كان كأن لم يكن، فجنى من جَنى مِن جَنْي ما جنى[1] ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٢٦] فراحت ريح الدّبور، لكي تسمَ الأدبار بكيِّ الإدبار، فلم تزل تكوي تكوينهم، وتلوي تلوينهم، وتكفأ عليهم الرمال فتكفي تكفينهم، فما برحتْ بارحهم[2] عن برَاحهم[3] حتى برّحت بهم[4] فدامت عليهم آفةً وداءً، لا تقبل فداءً ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ [الحاقة: ٧] فانظر إلى عواقب الخلاف، فإنه شاف كاف.

في قصة ثمود:

لما أعرضت ثمود عن كل فعلٍ صالح، بُعث إليهم للإصلاح صالح، فتعنّتت عليه ناقة أهوائهم بطلب ناقة، فخرجت من صخرة صمّاء تقبقب[5] ثم فَصَل عنها فصيلٌ يرغو، فرتعت في حماية ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ [الشعراء: ١٥٦] فاحتاجت إلى الماء، وهو قليل عندهم، فقال حاكم الوحي ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وكانت يوم وردها تقضي دين الماء بماء درّها.

(١) أي: قطف من أذنب من ثمار معصيته.
(٢) البارح: الريح الباردة.
(٣) البراح: الساحة.
(٤) برّحتهم: أجهدتهم وعذبتهم.
(٥) تقبقب: تصوّت.

فاجتمعوا على شاطئ غدير الغدر، فدار قدارُ[1] حول عَطَنِ[2] ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ [القمر: ٢٩] فَصَبَّ عليه صاعُ صاعقةِ العذاب الهونِ، فحين دنا ودندن، دمغهم دمار ﴿فَدَمْدَمَ﴾ [الشمس: ١٤] فأصبحت المنازل لهول ذلك النازل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

في قصة الخليل عليه السلام:

كانت أمة تُرضعه، وقد سبقها رضاع ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١] رأى قومه في هزلِ ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٢٢] فجادلهم فجدّلهم[3] وأبرز نور الهدى في حجة ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فقابله نمرود بظلام ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فألقاه على عَجُزِ العَجْزِ بآية ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم دخل دار الفراغ[4] ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ [الصافات: ٩٣] فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فبنوا بنيانًا إلى سفح جبل، فاحتطبوا له على عَجَل العَجَل، فوضعوه في كفَّة المنجنيق، فاعترضه جبريل في الطريق، فناداه وهو يهوي في ذلك الفلا: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فسبق بريد الوحي إلى

(١) قُدار بن سالف، أشقى الأولين، وهو عاقر الناقة.
(٢) العطن: المناخ.
(٣) غلبهم في المجادلة.
(٤) معبد الاصنام لما فرغ منهم.

النار، بلسان التّفهيم: ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

في قصة الذبيح عليه السلام:

لما ابتلي الخليل بنمرود فسَلِم، وبالنار فَسَلَّم، امتد ساعة البلاء إلى الولد المساعد، فظهرت عند المشاورة نجابة ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] وآب(١) يوصي الأب، اشدد رباطي ليمتنع ظاهري من التزلزل، كما سكن قلبي سكن السكون، واكفف ثيابك عن دمي لا يصبغها عندمي(٢) فتحزن لرؤيته أمي، واقرأ السلام عليها مني، فقال: نِعْمَ العونُ أنت يا بُني.

ثم أمرّ السكّين على مريء المرء فما مرّت، فطعن بها في الحلق مرّات فنبت(٣) لكن حُبَّ حَبِّ الرضا في حبة القلب نبت.

يا إبراهيم! من عادة السكين أن تقطع، ومن عادة الصبيّ أن يجزع، فلما نسخ الذبيح نسخة الصبر، ومحا سطور الجزع، قلب الله عادة الحديد، فما قطع، وليس المراد من الابتلاء أن يُعذِّب، ولكن يبتلي ليُهذّب.

أين المعتبرون بقصتهما في غُصَّتهما؟ لقد حصحص الأجر في حِصّتهما، لمّا جعلا الطاعة إلى الرضا سُلّما، فسلّ ما يؤذي فسُلّما، وصُدَّ ما به صُدِما.

---

(١) آب: رجع.

(٢) العندم: الدم.

(٣) نبت: كلّت ولم تقطع.

بينا هما على تلٍّ ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ [الصافات: ١٠٣] جاء بشير ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥] فارتدّ الحزن بقميص ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٧].

ليس العجبُ أمرَ الخليل بذبح ولده، وإنما العجب مباشرة الذبح بيده، ولولا استغراق حُبِّ الآمِرِ لما هان مثل هذا المأمور.

في قصة قوم لوط عليه السلام:

لما تهاوى قوم لوط في هوّة أهوائهم، وتنادوا في جهات جهلهم ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ [النمل: ٥٦] بُعثت الأملاك لانتزاع أملاك الحياة من أيديهم، فنزلوا من منزل لوط منزل النزيل، فهم في أفسح بيت من الكرم، غير أن حارس حِذْرِهِ ينادي ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هود: ٧٧] فخاف من قومه أذاهم، فإذا هم ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ [هود: ٧٨] فأخذ يدافع مرة بمشورة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ وتارة بِتُقَاةِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وتارة بسؤال ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ﴾ وتارة بتوبيخ ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ [هود: ٧٨].

فلمّا كلَّ سلاحه، أنَّ برمز ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] فحجبهم جبريل بحجاب ﴿فَطَمَسۡنَآ﴾ [القمر: ٣٧] ونتشه[1] من أَسْرِ الغمِّ بلفظ ﴿فَأَسۡرِ﴾ [هود: ٨١] فلمّا علم أن الملأ ملائكةٌ، تشوق إلى تعجيل التعذيب، فنادت عواطف الحِلْم ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١] فسار بأهله على أعجاز نجائب النجاة،

(١) نتشه: أخرجه.

إلا عجوز العَجْز، فإنها لحقت بالعَجَزة، فلمّا لاح مصباح الصباح احتمل جبريل قُرى من جنى، على قَرَا[1] جناحه، فلما سمع أهل السماء نباح كلابهم، أسرعت كفّ القلى[2] بهم في انقلابهم، ثم بُعث إليهم سحاب ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [هود: ٨٢] فتقاطر على قُطرهم من قطره قطرُ الحجارة، وبغتهم في غِرَّتهم بالغُرُور، بشق الغارة، تالله لقد ضكضك[3] العذابُ، فتضعضعوا، وانْقَضَّ بقضه وقضيضه فقضقض عظامَ عظامهم وتقطعوا، ودار هاتف العبرة على دارس دارهم ينادي ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥].

فليحذر العازمون على طروق طريقهم من وعيد ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] قبل غُصص الجَرَض[4] وألم الحَرَض[5] عند حلول المرض، حين يُعتقل اللسان، ويتحيّر الإنسان، وتسيل الأجفان، ويزول العرفان، وتُنشر الأكفان، فيا عجبًا! كيف ألفى لذة العيش الفاني الفاني[6] وقد مرَّ فأمرَّ كل ما كان ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) قَرا: ظهر.

(٢) القلى: البغض والكراهية.

(٣) ضكضك: أسرع وضغط.

(٤) الجرض: الريق.

(٥) الحرض: الفساد في البدن والعقل.

(٦) الفاني الأولى: صفة للعيش، والثانية: صفة للإنسان.

۩ في قصة يوسف عليه السلام:

لما تمكّن الحسد من قلوب إخوة يوسف، أُري المظلومُ مال الظالم في مرآة ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤] فتلطَّفُوا بخداع ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ [يوسف: ١١] وشوّقوا يوسف إلى رياض ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

فلما أصحروا أظهروا المقت له، وراموا بسهم العدوان مقتله، ففسخ نهارَ رفقهم به ليلُ انتهارهم له، فصاح يهوذا في بقايا شفق الشفقة ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] فلما ألقوه وقالوا: قد هلك، جاء من عند من يملكه: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ [يوسف: ١٥] فعادُوا عمن عادَوا ﴿عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] ولطخوا قميصه الصحيح ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] فلاحت علامة سلامة القميص كي يظهر كيدهم، فقال حاكم الفراسة ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ [يوسف: ١٨].

فلـمّا ورد وارد السيّارة، باعوا الصَّدَفة ولم يتلمّحُوا الدُّرَّة، واعجبًا لقمر قُومر به! فلما وصل إلى مصر تفرّس فيه العزيز فأجلسه على إعزاز ﴿أَكْرِمِي﴾ [يوسف: ٢١] فشغف حبُّه قلبَ سيدته ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ [يوسف: ٢٣] ففرَّ وما استبقى ﴿وَاسْتَبَقَا﴾ [يوسف: ٢٥] فانبسطت يدُ العدوان وامتدت ﴿وَقَدَّتْ﴾ [يوسف: ٢٥] فلما بانت حجته في إبّان ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [يوسف: ٢٦] أخذت بيمين ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ﴾ [يوسف: ٣٢] فاختارت درة

فهمه، صدف الحبس ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣].

هذا ويعقوب مفترش فراش الأسى على حَزْنِ[١] الحزن، حتى نحل البدن، وذهب البصر:

لم يبق لي بعدكم رسم ولا طَلَلُ … إلا وللشوق في أرجائه عَمَلُ
إذا شممت نسيمًا من ديارِكُمُ … فقدت عقلي كأني شارب ثَمِلُ

فلما عمّ القحط أرض كنعان، خرج إخوته لطلب الميرة[٢] فدخلوا عليه في ظلام ظُلْمهم، فرآهم المظلوم بعين ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ [يوسف: ١٥] وخَفّى عليهم نَغْمَةَ ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] فأقبل عليهم سائلًا، وأقبل الدمعُ سائلًا، وتقلقل تَقَلْقُلَ الواجدِ، ليسمع أخبار الوالد:

إيهٍ أحاديث نعمانٍ وساكنه … إن الحديث عن الأحباب أسمارُ
أُفتش الريح عنكم كلما نفحتْ … من نحو أرضكُمُ نكباءُ مِقطَارُ

فقالوا: جئنا من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له: يعقوب، وهو يقرأ عليك السلام، فلمّا سمع رسالة أبيه، انتفض طائر الوَجْدِ لذكر الحبيب، فهيّج أحزان الفؤاد وما يدري:

وداع دعا إذْ نحن بالخيف من منى … فهيّج أحزان الفؤاد وما يدري

(١) الحَزْن: خلاف السهل، وما غلظ من الأرض.
(٢) الميرة: الطعام.

فردّ السلام قلبُه قبل لسانه، وشغله وَكْفُ شانه[1] عن شأنه وقال لسان حاله بعبارة صعدائه:

خذي نفسي يا ريحُ من جانب الحِمَى فلاقي بها ليلًا نسيمَ رُبى نَجْدِ
فإنّ بذاك الحيِّ حِبًّا عَهْدتُه وبالرغم منّي أن يطول به عَهْدي

ثم إنه طلب منهم أخاه فاحتالوا بحيلة ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ [يوسف: ٦٣] فلما حملوهُ حال بينهم وبينه بحيلةِ ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ [يوسف: ٧٠] فعادوا إلى أبيهم بشجًى على شجْن[2] وقَرْح على جرح، وعَقْرٍ على عَقرٍ، فقام وقد تقوّس وعسى، على باب ﴿عَسَى﴾ [يوسف: ٨٣] ثم بعثهُ لطف ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾ [يوسف: ٨٧] على أن بعثهم برسالة ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ [يوسف: ٨٧] فلما رجعوا دخلوا من قفر الفقر، فاستلقوا في ساحة الضرّ، ينادون عن غليل الذُّل ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٨٨].

تالله لقد جُوزيت أيدٍ مدّها تغشرم[3] ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] أن مُدَّت في طريق ذل ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ فلما عرفوه اعترفوا، فحمى ما اقترفوا

(١) وكف شانه: الوكف: القطر، شانه: مدمع عينيه.
(٢) الشجى: ما اعترض في الحلق ونشب فيه، والشَّجْن القطعة من الشيء، والمراد به هنا القلب، أي زيادة ألم وهمّ على القلب الحزين، وذلك بفراق بنيامين بعد فراق يوسف عليه السلام.
(٣) التغشرم: الجرأة.

بحمى ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ [يوسف: ٩٢] ورفع من موائد تلك الفوائد نصيب الوالد ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣] فهبت نسيم الفرح، من فُرَجِ الفَرَج، فنادى مُدْنَفُ الوجد ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

نـشدتك بـالله يـا نـسيمُ ... مـا فَعَلَـت بعـدنا الرسـومُ
هـل استهلّت بها الغـوادي[1] ... ونمّقـت روضـها الغيـومُ؟
وهـل بها مـن عَهِـدتُ فيها ... بَعْـدُ عـلى حالـه مقـيمُ
عُـدْ فـسلِّمْ عـلى أنـاسٍ ... مـا أنـا مـن بعـدهم سـليمُ
وقـل غريـبٌ ثـوى بـأرضٍ ... في غيرهـا قلبُـه مقـيمُ
يكابـد الـشوق حـين يُمـسي ... وتعـتري قلبـه الهمـومُ
أحبابنـا تنقـضي الليـالي ... ومـا انقـضت تلكـم الكلـومُ

فلمّا كشف يعقوب فِدام[2] الوجد، بكفِّ ﴿إِنِّى لَأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤]. حدقت به عواذل ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ [يوسف: ٨٥] تالله لو وجدوا ما وجد ما أنكروا مع عرف.

في ذكر بداية موسى عليه السلام:

كانت الكهنة قد أخبرت فرعون بوجود موسى، فأطلق الموسى[3] في

(١) أي: هل هطلت فيها الأمطار؟
(٢) الفِدَام: غطاء القارورة ونحوها.
(٣) الموسى: السكين الحادة.

ذبح الأطفال، فلما اتُّهمت أمُّ موسى بالوضع، أوضع[1] الحرس إلى بيتها بالطلب، فسعت بتابوته إلى البحر ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ [طه: ٣٩] فصدَرَت بعد إلقائه بصدْرٍ قد لوى به لواعج الاشتياق، لا يعلم قدر ما به إلا مَنْ قد رُمي به، فتلقّاها بالبشر بشير ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] فلم تزل أمواج اليّمّ تُيَمِّمُ به مسالك القَدَر، إلى أن خَبَّتَ[2] به خيل النيل، فتناولته مَشْرعةُ[3] دار فرعون، فألقته في بريّة ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ [القصص: ٨] فلما فتحوا التابوت أسفر عن مسافر نجيب، قد جُعل زاده في مِزْود ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ووُشح قلادة الحبِّ قد رُصّعت بِدُرِّ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله، فخرجت آسيةُ من كمين أتباعه تنطق عن لسان ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وتُنادي في مخدع خديعة الحرب ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] وتجمع في كلامها ما هو فرد في لغة القَدَر ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [القصص: ٩]، فلم يزل فرعون في أغباش[4] غرور يذبح إلى أن طلع صبح ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: ٥] فلما قصَّ شوقُ أمِّهِ جناح صبرها، قالت لأخته ﴿قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ [القصص:

---

(١) أوضع: أسرع.

(٢) خبّت الفرس: إذا نقلت أيامنها وأياسرها جميعًا في الركض.

(٣) مشرعة: مورد الشاربة.

(٤) الغَبَش: ظلام آخر الليل.

١١] في حريم ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ [القصص: ١٢] فدنت فدندنت حلة الحيلة بحول ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ [القصص: ١٢] فلما حفظت باب المكر بحارس ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ دخل طفيلي الوجد من باب ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فجاءت بأُمها يؤمها دليل الطرب، فكادت إذ حضرت تحضرُ في ميدان ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠] فكبحها لجام ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وسُلّ من أيديهم إلى سُلَّم تسليمها، فقرّ في حجر ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣].

فرُبّيَ موسى في رُبى فرعون، ونما بين نمارقه، إلى أن آن أوان مهاجرته، فجرى القَدَر بقتل القبطيِّ ليكون سببًا في سرّ سير ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ [القصص: ٢٢] فسعى في أرجاء رجاء ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ فتزوّد من مزود ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ [القصص: ٢٣] فتجمّع الصهر بواسطة ﴿إِنَّ أَبِى﴾ [القصص: ٢٥] فبقي ضمان الوفاء إلى أمانة ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] فتلمّح معنى ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ فيبدوا في بادية الحيرة أنيسُ ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ فترامى كف الطمع إلى مرامي ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ فأطلّ على طُلل الطلب أقدام ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ [القصص: ٣٠] فتلقّط ثمار التكليم من غير كلفة ﴿وَهُزِّىٓ﴾ [مريم: ٢٥] تَسّاقَطُ من جنى جنات التجلّي ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠].

في تكليم الله عز وجل موسى عليه السلام:

شمّر موسى عن ساق القصد وساق، فلما أتى النادي ﴿نُودِىَ﴾ [طه: ١١]

فحين ذاق لذة التكليم، جرح قلبه نصلُ الشوقِ، فلم يداوه إلا طبيب ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ [الأعراف: ١٤٢] ولما جاء الموعد ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وأُحضر حتى حَضَرَ حظيرة القدس، فنسي الإنسَ بما آنسَ من الأُنس.

۩ في قصة بَلْعام وموسى عليه السلام:

أيها المتعبد! خف من الفتن ولا تأمن، فكم قد أُخذ آمن من مأمن، إنه لم ينجُ من غطامِطِ[1] بحر الفتن حافظُ الاسم الأعظم، بل عامَ[2] بَلْعَامُ، رَفَل في حُلل النِّعم كالنَّعَم، غافلًا يتعامى عن النعم، وكانت بنيّة نيّة تعب تعَبُّده على رمل الرياء، فجرت تحتها أنهار الامتحان فانهار بنيانها فتخرّب وأتبعه الشيطان ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] تالله ما عدا عليه العدوُّ، إلا بعد أن تخلى عنه المولى، فلا تظنّن أن الشيطان غلب، وإنما العاصم أعرض ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

۩ في قصة قارون:

كان قارون غايةٌ في فقهه وفهمه، وكان في النسب إلى موسى ابن عمه، فلما فاضت الدنيا عليه، فاضت نفسُ علمه، وكانت مقاليد خزائن خزاياه وَقْرَ ستين بغلًا، غير أن الذي فاته بما ناله أعلى وأغلى، وسحب ذيل

(١) بحر غطامط: أي عظيم الأمواج.

(٢) عام: سَبَحَ.

﴿فَبَغَىٰ﴾ [القصص: ٧٦] فقام قومه بزجر ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ وألقوا إليه نصائح ﴿وَٱبْتَغِ﴾ ﴿وَلَا تَنسَ﴾ ﴿وَأَحْسِن﴾ ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ [القصص: ٧٧].

فركب يومًا في وقت اقتداره في أربعة آلاف مقاتل، وسُمُّ الهوى يعمل في المقاتل، وركب معه في معمعته ثلاثمئة جارية، وقد أنساه سفه الأمل أن سفينة الأجل جارية، فلما غلا وعلا، حُطّ إلى حطيط ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ [القصص: ٨١].

إن الدنيا إذا طلعت على الطغام[١] تُطغي، وإذا بُغي نكاحها على العفاف تبغي، تالله لقد لقي الغبيّ الغنيّ غِبَّ[٢] غبواته[٣]، فلما انجلى غيهب عينيه رأى الغَبْن والغَبَن[٤] نعوذ بالله من الخذلان.

وإذا رامِي المقادير رَمَى فدروع المرء أعوانُ النصالِ

في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس:

ركب سليمان يومًا مركب الريح، فراحت بواديه على وادي النمل، فندّت نملة، فنادت أخواتها بنداء ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨] ثم قامت فأقامت لعدله عذر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فحملته أريحيَّة الشكر على طَرَب

(١) الطغام: أوغاد الناس.
(٢) غب: عاقبة.
(٣) غبواته: جمع غباء.
(٤) الغبْن: الوكس والخديعة، الغَبَن: النقص والضعف في الرأي.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٩] لأنها تلفّظت (يا) نادت (أيها) نبهت (النمل) عيّنت (ادخلوا) أمرت (مساكنكم) نصّت (لا يحطمنكم) حذّرت (سليمان) خصّت (وجنوده) عمّت (وهم لا يشعرون) عذرت.

وغاب الهدهد، فتوعده بلفظ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ ﴾ [النمل: ٢١] فجاء ببهتٍ[١] ذكيٍّ ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ [النمل: ٢٢] فحمّله كتابًا، فرأت اليقظى[٢] كتابًا مختومًا، وأمرًا محتومًا، وكلامًا عجيبًا، وحاملًا غريبًا، فاستشارت قومها فأومأوا إلى الحرب بلفظ ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ [النمل: ٣٣] فعلمت أن مَنْ مِنْ جنده الطير لا يُحارب، وبعثت ما فرق بين الدعوة والدعوى[٣] ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥] فلما تبدت هوادي هديتها، صاح سليمان بعزٍّ ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦] فلما صحّ عندها ما يدعو إليه وثَبَتَ، وثبَتْ على أقدام الطلب، وهيأت مراكب القصد، ورحلت في هجير شمس الهدى على نجائب الهجرة، فلما سمع سليمان برحيلها، أراد تقوية دليلها، فنادى في ناديه ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ [النمل: ٣٨] فلما جيء به سَتَرَهُ بِقِرَام ﴿نَكِّرُواْ﴾ [النمل: ٤١] ثم ابتلاها ليرى ذكاءها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢] ثم صرّح بفظ ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ﴾ [النمل: ٤٤] فشُبّه لها لضعفها عن لطافة ساقيتها،

---

(١) بهت: من بهت الخصم، إذا استولت عليه الحجّة، ودُهش بها.

(٢) الملكة بلقيس، من اليقظة والفهم.

(٣) أي هل هو صادق في دعوته للهدى أم راغب حرب وعلو؟ فاختبرته بالدنيا.

فكشفت عن ساقيها، فلما وصلت وسلّمت، أسلمت فسلِمَت، ونثرت خرزات نظام النطق على نَظْمِ العذر ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:

وهبت أم مريم حملها لمن وهبَه لها، فلما وضعتها أنّ لسان التلهف ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] فجبر كسرها جابر ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ وساق عِنان اللطف فربت في رُبى ﴿وَأَنبَتَهَا﴾ [آل عمران: ٣٧] فانطلقت بها الأم تأُمُّ بيت المقدس، فلبس القوم لأْمَهُم[١] في حرب ﴿يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤] فثبت قلمُ زكريا إذ وثَبَت الأقلام، فكَفَتَها[٢] وكفلها، فأراها المُسَبِّبُ غناها عن السبب بآية ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ فربَّها من ربَّها[٣] فنشأت لا ترى إلا ربَّها.

فانتبذت يومًا من أهلها فأقبل نحو ذلك البرِّيِّ البرِيّ[٤] بريد ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ [مريم: ١٧] فتحصنت الحَصان[٥] بحصْن ﴿إِنِّي أَعُوذُ﴾ [مريم: ١٨]

(١) لأمهم: جمع لَأْمة وهي الدرع.

(٢) كفتها: ضمها.

(٣) ربها الأولى: وليها وتعهدها بما يغذيها وينميها، والثانية: حفظها.

(٤) البرّيّ: نسبة إلى البَر والصحراء، والبريّ من البراءة.

(٥) الحَصان: المرأة العفيفة، والجمع حُصُن.

فانزوى إلى زاوية ﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ وأخبرها بالتّحفة في لفظ ﴿لِأَهَبَ﴾ فأُقيمت في مهبّ ريح الرُّوح، فتنفست الكلمة من كمين الأمر، فنفخ جبريل في جيب الدرع[1]، فمرت المرأة حاملًا في الوقت.

فأخرجها الحياء عن الحيِّ، فلما فاجأها وقت الوضع، أجاءها[2] المخاض إلى الجذع، تحيرت من وجود ولد وما فجرت، فَجَرت عين الدمع، فصاح لسان الخفر[3] ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣] فأجابها الملكُ عن أمر مَنْ مَلَكَ ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ وأُجرى لها في أواني الأوان سَرِيّ كما وهب لها من الغلمان سريّ، فسرّى[4] عن سِرّها وجود الطهور، وأُنس الطاهر[5].

وأُريت آية تدل على قدر القدرة في مقام ﴿وَهُزِّيٓ﴾ [مريم: ٢٥] فهزّت جِذْمَ جذع مائل مثل الحطب، فتساقط عليها في رَطْب الرُّطَب، وقيل لها: ﴿فَكُلِي﴾ [مريم: ٢٦] وكِلي[6] الكُلَّ إلى من له الكُلُّ، كُنْتِ بمعزل من وجود الولد، فكوني بمعزلٍ من إقامة العُذر، فسكتت وسكنت ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥ﴾ [مريم: ٢٧] فنادوا من أندية التوبيخ ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ فأضجروا

(١) جيب الدرع: فتحة الثوب مما يلي العنق.

(٢) أجاءها: ألجأها.

(٣) الخفر: الحياء.

(٤) السريّ: الأولى: النهر، والثانية: السيد الوجيه، وسرّى: أي كشف ما بها من غم.

(٥) الطهور: الماء، والطاهر: المسيح عليه السلام.

(٦) كِلي: توكلي واعتمدي وفوضي.

مريضًا قد ضنى[1] من أنين ﴿أَنَّىٰ﴾ [مريم: ٢٠] على فراش ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ﴾ [مريم: ٢٣] فلما شارت[2] أَرْيَ[3] الرأي، أشارت إليه، فأخذت ألسنة تعجُّبِهم تعجُّ بهم ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ﴾ [مريم: ٢٩] كأنها قالت لهم: أنا طريق وهذا مرّ بي، والمسافر يُسأل عن الطريق، لا الطريق عن المسافر، فقام عيسى يمخَضُ أوطاب[4] الخطاب على منبر الخطابة، فأبرز محض إبريز[5] الإقرار: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] وأومأ إلى وجوده من غير أب في إشارة ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ وكانت واسطة عقده ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾ [الصف: ٦].

فلما تمّ له سنّ الشباب، جلس على باب المعجزة، يُعطي العافية العافية[6]، ويُبرئ الأكمه والأبرص، ولقد ترك الدنيا فطلّقها فغزاها بجند الزهد بين مُسرَج ومُلجَم، ما التفت إليها قط وجهُ عزمه، ولا صافحها يومًا كفُّ قلبه، ولا غازَلها ساعةً لسان فكره، فلم يعرف حقيقة ما حوى سوى الحواريين، فشمروا عن ساق العزائم، في سوق بُدْنِ الأبدانِ إلى مِنى المُنى تحنّ بلفظ ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وكتبوا في عقد العقائد ﴿ءَامَنَّا

---

(١) ضنى: تعب.

(٢) شارت: اجتنت.

(٣) أري: عسل.

(٤) أوطاب: جمع وَطَب، وهو سقاء اللبن المصنوع من الجلد.

(٥) الإبريز: الذهب الخالص.

(٦) العافية الأولى: الصحة، والثانية: اسم فاعل من الفعل (عفا) جمعه عفاة، وهو طالب المعروف.

﴿بِٱللَّهِ﴾ فعدلوا بها إلى عَدْل ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. ثم إن اليهود اجتمعوا في بيت ﴿وَمَكَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٤] فنُزِل عليهم بيد ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ فحاق بالمرءِ مُرُّ مراده، ورفع الله عبده.

في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام:

لما قام زكريا عليه السلام بإقامة الإقامة لمريم، رأى وكيل الغيب يسبقه بالإنفاذ على يد القدرة في كِنِّ[1] كُنْ، وكان إذا خرج ثم جاء، فاجأه ثمر الثمار قد نمت، فكم قد ألفى الفاكهة الفائقة لا في حينها، فتلمّح بعين زرقاء[2] الفهم، فرأى نفقة الجارية جاريةً، وكِيسُ الأسباب على ختمه[3] فصاح لسان الدهش ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧] فأحالت الحال على المسبِّب ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فنبهت هذه الآية راقد طمعه[4]، بعد أن طال وَسَنُه سبعين سنة، فقام الشيخ وعسا على باب عسى في محراب ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ وكتب قصة ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩] وشكا ما شيك به[5] في كلمات ﴿وَهَنَ

(١) الكِنّ: ما يتخذ سترة ووقاية من الحر والبرد.

(٢) إشارة إلى زرقاء اليمامة، واشتهرت بحدة البصر.

(٣) أي تأتيها الفاكهة بدون سبب ظاهر.

(٤) أي في الولد، ليخلفه في القيام بمهام النبوة.

(٥) شيك به: آلمه.

ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] فلما أورد في قصته ما يريد حمّلها بريد الرجاء، إلى من عوّدَ العُوْد العَوْد[1] فكُشف الجوى في الجواب.

لله دَرُّهُ! خدم حتى شاب، ثم طلب نائبًا على الباب، فأصبح ميتُ أملِهِ بوجود يحيى يحيا، فمشى لمشاهدة وجه القدر، وقد حال بينهما سَفَر العادات، إلى أن آن تلَفُّظ ﴿أَنَّىٰ﴾ [مريم: ٢٠] وأوحي إليه ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٢١] فَسَأَلَ عَلَمًا على ما يَعْلمُ به وجود الحمل، ليحمل نفسه على الشكر، فوُعد بسجن اللسان، مع سلامة الإنسان، إلا عن ذكر الرحمن، ليكون حجُّ نطقه مُفردًا.

فلما وُلد يحيى، لم يبلغ مبلغ يافع، إلا وهو ولد نافع، لا تهزّه صَبَا الصِّبَا، وقُطَّ[2] له قِطًا[3] من عصام العصمة، ما قُطَّ قطّ لأحد، فما خطا إلى خطأٍ ولا همَّ، وكثر بكاؤه من الخشية، فيا عجبًا من بكاءِ من ما عصى ولا همّ، وضَحِكِ من كتابُه بالذنوب قد ادلهم، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥].

في قصة أهل الكهف:

كان رَقْمُ ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] واغلًا[4] كهف

(١) العُود: العود اليابس، العَوْد: رجوع الخضرة فيه.

(٢) قطّ: قطع.

(٣) قِطًا: نصيبًا.

(٤) وَغَلَ: دخل بعمق.

قلوب أهل الكهف، فلما نَصَب ملِكهم شَرَك الشِّرْك، بان لهم خيط الفخّ ففروا، فخرجوا من ضيق حصر الحبس إلى الفضاء فضاءَ لهم، فلما دخلوا دار ضيافة العزلة، اضطجعوا في راحة[1] الراحة من أرباب الكُفر، فغلب النوم القوم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥] وكانت يد اللطف تقلّب أجسادهم لتسلم من أفنِ[2] عَفَنٍ، وجرت الحال في كلبهم على ما جرت بهم، فكأنه في شَرَك نومهم قد صيد ﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

وهلك الملك في بِيْدِ الهَلَك، وهبّ الراقدُ، فترنّم أحدهم بلفظ ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ [الكهف: ١٩] فأجابه الآخر ﴿يَوۡمًا﴾ ثم رأى بقية الشمس نقيّة فاتقى بالورع وَرْطاتِ الكذب ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾.

فلما قفلوا من سَفَر النوم إلى ديار العادة، زاد تقاضي الطبع بالزاد، فخرج أحدهم في ثوب متنكّر، فضلّت معرفته بالمعاهد، فمد إلى بائع الطعام باعه[3] فما باعه، وظنّ أنه قد وجد كنزًا، ولقد وجد كنز ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣] فحمله القوم إلى الوالي، فقال: إنه لمالي، فما لكم ومالي؟ كُنّا فتية أكرهنا على فتنة، فخرجنا عشية أمس، فنمنا في باطن الكهف، فلما انتبهنا خرجت أبتاع قوت الوقت، فسار القوم معه في

---

(١) راحة: باطن كف اليد.

(٢) أفن: فساد ونتن.

(٣) الباع: من اليد أو ما بين اليدين الممدوتين.

عسكر التعجب، فسمع إخوانه جلبة الخيل، فدخل صاحبهم فقصّ عليهم نبأهم، فعادوا إلى مواضع المضاجع، فوافتهم الوفاة، وفات لقاؤهم.

إخواني! ليس العَجَبُ من نائم لم يعرف قدر ما مرّ من يومه، وإنما العجب من نائم في يقظة عمره.

أما والله لو علم الأنام	لما خلقوا لما غَفَلوا وناموا
لقد خلقوا لِمَا لو أبصرَتْهُ	عيون قلوبهم ساحوا وهاموا
ممات ثم قبر ثم حشر	وتوبيخ وأهوال عظامُ
ليوم الحشر قد عملتْ رجالٌ	فصلّوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو نهينا	كأهل الكهف أيقاظ نيامُ

في بداية أمر نبينا ﷺ ورضاعه:

خُلِق نبينا ﷺ من أرضى الأرض أرضًا، وأصفى الأوصاف وصفًا، وصين آباؤه من زلل الزنا، إلى أن صُدِّفت بتلك الدُّرة صدفة آمنة، فوثَبت لرضاعه ثويبة، ثم قضت باقي الدين حليمة، فقام نباتُه مستعلجًا[1] على سوقه، مستعجلًا قيام سوقه[2]، فنشأ في حِجْر الكمال كما يشاء.

---

(١) مستعلجًا: غليظًا.

(٢) سوقه الأولى: أعواد النبات كناية عن تمام خلقه منذ صباه، والثانية: ما يباع فيه ويشترى كناية عن قيامه بالرسالة.

أقبلت حليمة والجَدب عامّ في العام، فعُرض على المرضعات فأبين لليتم، فراحت به حليمة إلى حِلَّتها، فثاب لبنها ولبن راحلتها، فباتوا لبركته رواءً، وهبَّ على مباركهم نسيم نسمةٍ مباركة، فلما ظعنت الظعائن أتت أتانُهَا تَؤمُّ أمام الركب، فلما حلّوا حِللهم، كانت الرعاءُ تسرحُ فيعقِرُها سرحان[1] الجدب، وراعي حليمة يعيدُ الغنم بالغُنْمِ.

فبينا الصبي مع الصبيان، جاءه جبريل فجأةً فشقّ عن القلب، ثم شقّه وما شقّ عليه، فعلق بيده عَلَقةً[2]، فقال: هذا حظّ الشيطان، وقد قطعنا عُلقَه، ثم أعاد قلبهُ وما به قَلَبةٍ[3]، فبقي أثر المخيط في صدره باقي عمره لإظهار سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾.

فلما بلغ ست سنين، ألوى الموت بالوالدة، فجدّ في كفالته الجدُّ، ثم طلبَ الموتُ عبد المطلب، فكفله أبو طالب، فخرج به وقد زانه كالتاج تاجرًا، فتيمم باليتيم منزل تيماء، فرآه بحيراء ببحرته[4] فقرأ سمات النبوة من شمائل ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٦] فشام[5] برقَ فضله، فلاحَ من شيمة شامَته، فقال لعمه: احفظ هذه الشامةَ من شامِتٍ.

---

(١) سرحان: الذئب.

(٢) العَلَقَة: القطعة من الدم الجامد، عُلْقَة: العلاقة التي يتعلق بها. عُلَقَة: علائقه.

(٣) القَلَبة: الداء.

(٤) البحرة: البلد.

(٥) فشام: نظر، وهي للبرق خاصة.

وما زال نشْرُهُ يضوع[1] ولا يضيع، وتحرّى غار حراء للفراغ، فراغ إليه المَلَك، فأفاض عليه حلَّة ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١] فأفاض إلى حلة «زملوني» فسكّنت خديجة غُلَّته بعلَّة «إنك لتصل الرحم»[2].

ثم انطلقت به إلى ورقة فقرأ من ورقة سيماء نقش فضله، فتيقّظ لفهم أمره إذ ناموا، فقال: «هذا الناموس الذي نزل على موسى»[3]، ولقد عرفه الأحبار في الكنائس، والرهبان في الصوامع، وأنذر به الرَّئي وأخبر به التابع[4].

فكانت تسلم عليه قبل النبوة الأحجار، وتُبشّره بها أولاه مولاه الأشجار، وكان خاتم النبوة بين كتفيه، وسرايا الرعب تترك كسرى كالكسرة بين يديه، أُلبس إهاب الهيبة، وتُوّج تاج السيادة، وضُمِّخ بأذكى خلوقِ أزكى الأخلاق، وأُحل دار المداراة[5]، وأُجلس على صفحة الصفح، ولُقم الحكمة، ووُضع له التواضع، وأُدير عليه الكَيْس وضُمّن حلاوة الحِلم، وختم بمسك النسك.

---

(١) يضوع: يفوح.

(٢) متفق على صحته.

(٣) متفق عليه.

(٤) الرئيّ: الجني الذي يتشكل ويعرض للإنسان، والتابع: الجني الذي يتبع الكهنة والسحرة. عياذًا بالله من حالهم.

(٥) المداراة: التألف.

وأُعطي جواد الجود، ونُووِل قلم العزّ، فوقّع على صحائف الكدّ، **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»**(١).

كان يعود المريض، ويُجيب دعوة المملوك، ويجلس على الأرض، ويلبس الخشن، ويبيت الليالي طاويًا، ضُنَّ به عن الدنيا لا بها عنه.

ولقد شارك الأنبياء في فضائلهم وزاد، أين سطوة ﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] من حلم **«اهد قومي»**(٢)؟ أين انشقاق البحر من انشقاق القمر؟ أين انفجارُ الحجر من نبع الماء من بين الأصابع؟ أين تسبيحُ الجبال في أماكنها من تقديس الحصى في الكفّ؟ أين علو سليمان بالريح(٣) من ليلة المعراج؟ أين إحياء عيسى الأموات من تكليم الذراع؟

كل الأنبياء ذهبت معجزاتهم بموتهم، ومعجزة نبينا الأكبر قائمة على منار ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] تنادي ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] ولقد أعرب عن تقدُّمِهِ من تَقَدَّمه **«آدم ومن دونه تحت لوائي»**(٤) **«لو أن موسى عليه السلام كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني»**(٥).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البيهقي في الشعب.

(٣) سفر نبي الله سلام عليه السلام على متن الريح محتاج إلى دليل، فتسخير الريح ثابت بنص القرآن لكن سفره على متنها لا أعلم فيه دليلًا.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٥) رواه أحمد.

فهـو أول النـاس خروجًـا إذا بُعثـوا، وخطيـب الخلائـق إذا وفـدوا، ومُبشّر القوم إذا يئسوا، الأنبياء قد سكتوا لنطقه، والأملاك قد اعترفوا بحقّه، وكلامُ غيره قبل قوله لا ينفع، وجواب ربه له «**قل يُسمع**»[1] فسبحان من فضّ له من الفضل ما فضّله، وكساه من حلل الفخر الجمّ ما جمّله، جمع الله بيننا وبينه في جنته، وأحيانا على كتابه وسنته.

قصة الغار والصديق رضي الله عنه:

لما أغارت قريش خيلَ الخِيل على الرسول ﷺ، خرج إلى غارٍ لو دخله غيره كان غَرَرا[2]، فَغَريت قريش بالطّلب، فحمُي بلُطفٍ فما بان المستَتِرُ، فغشّى ما غشّى على أبصار المُقتفِين فصاروا كالأعشى، فعادوا عن من عادَوا، عودًا بحتًا بلا بختٍ، فقال الصدّيق من حرّ الوجد: «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا» فقال ﷺ: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**»[3].

فلما رحلا لحقهما سُراقة، فسرقت الأرض قوائم فرسه، فلما رأى أرضًا صلدًا قد فرست الفرس فرسَتْ[4] إلى بطنها ببطنها، أُشربت نفسه علم اليقين بظنّها، فأخذ يعرض مفاتيح المال على من رد مفاتيح الكنوز،

(١) متفق عليه.

(٢) الغرر: التعرض للهلاك.

(٣) متفق عليه.

(٤) فرست الأولى: افترست، والثانية: رسبت ونزلت من الرسوّ.

ويقدم الزاد إلى شبعان «**أبيت عند ربي**»[(١)].

فجاز على خيمة أمِّ معْبَد، فأصحّت[(٢)] شاتُها، وأصبحت تشهدُ، فوصلا إلى يثرب على نجائب السلامة، وفات الخيرُ مكة، وفاءت المدينة بالكرامة.

في قصة أهل بدر:

لما بادر بدر الشريعة بالخروج إلى بدر، رأى في الصحابة قِلَّة فارتقى قُلَّة ﴿**وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ**﴾ [آل عمران: ١٥٩] فقام المقداد عن قومه قومةً لحقِّ متابعة المُبايَعة، فقال: «لو سرت إلى بَرْك الغِماد لتابعناك»[(٣)] فما لبث الرسول ﷺ أن صار يطلب بالخطاب الأنصارَ، ففطن لسعادته سعدُ بن معاذ، فقال: «لو خضت البحر لخضنا».

فرأى المصطفى في الأعداء العَدد والعُدد، فاستقبل قِبلة الطلب، واقتضى[(٤)] كريمًا ما ماطل، فانتدب مددَ العون، فأقبلت سحابةٌ تسحب ذيل النصر، فسمع المشركون منها حمحمة[(٥)] الخيل فحُمُّوا، وانقلبت قلوبهم من

(١) متفق عليه.

(٢) أصحت: عادت صحيحة.

(٣) رواه أحمد.

(٤) اقتضى: طلب من بذمته دين، ويشير هنا إلى سؤاله ربه أن ينجز له ما وعده.

(٥) الحمحمة: صوت الفرس.

يحمومها حُمَمًا[(١)]، فنزلت الملائكة مع الإِلْفين[(٢)]، فعدلوا كالغمائم، قد سدلوا العمائم، وأرسلت قريش رائدًا، فعاد بتأثير ﴿سَأُلْقِى﴾ [الأنفال: ١٢]، فحذر القومَ العُزْلَ سهام العزائم، فأثّر عُتبةُ في عَتْبِهِ، وكاد يشيب خوفًا شيبة، وأحكم حزام الحزم حكيم بن حزام، وأبى للجهل أبو جهل:

فلـزَّهم الطـراد إلى قتـالٍ ... أحـدُّ سـلاحهم فيـه الفـرارُ
مـضوا متسابقي الأعـضاء فيـه ... لأرجلهـم بأرْؤسـهم عِثـارُ

فلما قُلِبوا إلى القليب، قام الرسول ﷺ على رأس الرّسّ[(٣)] يُنادي الرؤساء حين رُسّوا[(٤)] بلسان ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٣٦] على جواب ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ [الأنفال: ١٩] لتصديق ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] في مضمون ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ [المطففين: ٣٦] يا فلانُ! ويا فلانُ! «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟»[(٥)].

في تزويج علي بفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

كان للنبي ﷺ بناتٌ فَضَلْتُهنَّ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وزوجات سبقتهن

---

(١) الحُمَم: الفحم.

(٢) الإلفين: من الألفة، إشارة إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام.

(٣) الرس: القليب.

(٤) رُسّوا: دُفنوا.

(٥) السيرة لابن كثير (٢/ ٤٩٠).

عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا[1]، وذلك أن الاختيار لا يُحابي في التساوي، تُسقى بماء واحد ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٖ فِي ٱلْأُكُلِۚ﴾ [الرعد: ٤].

لمّا نهض علي لخطبتها، طرق بأنامل رجائه أرجاء باب الخِطبة، فمشى إليه الآذن بالإذن، فنقد صدق الرغبة قبل نقد الصّداق، فعُقد العقد على درعٍ لينبّه على جهاد الهوى، وحلاها من هي بَضْعَةٌ[2] منه بحلية **«فاطمة بضَعْة مني»**[3] وعقد لها عقدًا خرزات نظامه: **«ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة»**[4].

❁❁❁❁❁❁

(١) في التفضيل بين خديجة وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا خلاف قديم، والأظهر أن خديجة أفضل في عهدها حيث ناصرت وواست رسول الله ﷺ بنفسها ومالها وحنانها حيث قل المعين الناصر، وعائشة أفضل في عهدها حيث نشرت العلم النبوي وكان لها قدم الصدق في كشف المسائل ونشر السنن.

(٢) البضعة: قطعة اللحم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

القسم الثاني: في المواعظ المرسلة

وهو في الأصل مئة فصل:

من بيان عظمة الله عز وجل ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] توقيع أمره ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: ٩٠] واقع زجره ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [النحل: ٩٠] يَنادَى على باب عزته ﴿لَا يُسۡـَٔلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] يُصاح على محجّة حُجّتْه ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [المؤمنون: ٨٤] يُنذِر شاهدُ علمه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] يقول طَوْلُه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وفضله ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾ [الزمر: ٥٣].

سبحان من أقام من كل موجود دليلًا على عزته، ونَصَب عَلَمَ الهدى على باب محجّته، الأكوان كلها تنطق بالدليل على وحدانيته، وكل مخالف وموافق يمشي تحت مشيئته[1].

إن رفعت بَصَرَ التفكر ترى دائرة الفلك في قبضته، وتبصر شمس النهار وبدر الدُّجى يجريان في بحر قدرته، والكواكب قد اصطفّت كالمواكب على مناكب تسخير سطوته، فمنها رجوم للشياطين ترميهم فترميهم[2] عن حِمى

(١) فالمشيئة متعلقة بالإرادة الكونية المحتومة، أما الإرادة الشرعية فلا يلزم وقوعها.

(٢) ترميهم الأولى: ترجمهم. والثانية: تبعدهم وتلقيهم.

حمايته، ومنها سطور في المهامه[1] يقرؤها المسافر في سِفْر سَفْرته.

وإن خفضت البصر رأيت الأرض مُمسَكة بِحَكَمة[2] حِكْمَتِه، كل قُطْر منها محروس بأطواده عن حركته، وإذا ضجّت عِطاشها ثار السحاب من بِرْكة بَرَكَته، ونفخ في صُوْرِ الرعد لإحياء صُوَرِ النبات من حفرته، فيبدو نور النَّوْرِ يهتز طربًا بخزامى رحمته، فإذا استوى على سُوقه زادت في سَوْقه نعامى نعمته، وتفتقت أكمام النبات عن صنعةِ صِبغته، فيرفُل في حُلَى الحُلل إلى معبر عبرته، وتصدحُ الوُرْقُ[3] على الوَرَقِ كلٌّ بتبليغ لغته، والأشجار معتنقةٌ ومفترقةٌ على مقدار إرادته، ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤] هذا بعض صنعته ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الصف: ٩] في فضل نبينا محمد ﷺ.

لم يزل ذكر نبينا ﷺ مشهورًا منشورًا وهو في طَيِّ العدم، أُخذ له ميثاق الأنبياء على تصديقه، نال خُلة إبراهيم وتكليم موسى، وهو جُمْلَةُ الجمال، وكُلُّ الكمال، وواسطة العقد، وزينة الدهر، هو صدر الأنبياء وبدرُهم،

(١) المهامة: جمع مهمهة وهي الصحراء.
(٢) الحَكَمَة: حديدة توضع في فم الفرس متصلة باللجام.
(٣) الوُرق: جمع ورقاء، وهي الحمامة التي في لونها بياض إلى سواد.

وقطب فلكهم، وعين كتيبتهم، وواسطة قلادتهم، نقش فصّهم، خاتمهم:

شمس ضحاها هلال ليلتها   دُرٌّ تقاصيرها زبرجدها

أطيب ثمار (كُنْ) قد حُمل عليه ثِقَلُ ﴿قُمِ﴾ [المزمل: ٢].

رُميت الشياطين عند مبعثه بِأَسْهُمِ الشهب عن قوس ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨] فمروا إلى المغارب، ومشوا إلى المشارق، ليقطعوا سبسب السبب، فجرت ريح التوفيق، بمراكب بعضهم إلى تهامة، فصادفوه في الصلاة، فصاد فوه[1] قلوب القوم، فصاحت ألسنة الوُجْد ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

تحرّكت لتبجيله السواكن، فحن إليه الجذع، وسبّح الحصى، وتزلزل الجبل وسَكَن، وتكلّم الذئب والضبّ والعذق، كُلٌّ كنّى عن شوقه بلغته، فمرضت قريشٌ بداء الحسد فقالوا: مجنون.

يا محمد![2] هذا نقشُ يَرقانهم[3] لا لون وجهك، لمّا أخذَ في سَفَر ﴿أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] فانتقل إلى المسجد الأقصى، بَرَز إليه الأنبياء، فاقتدوا

---

(١) فوه: فمه، والمراد تلاوته للقرآن الكريم.

(٢) ليس في هذا طلب ولا دعاء، بل هو من باب (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) في دعاء التشهد، فاستحضر الغائب في الوجدان لقوة العلاقة، ومنه:

خيالك في عيني وذكرك في فمي   ومثواك في قلبي فأين تغيب؟!

(٣) مَثَلٌ يضرب للذي يرمي غيره بداء نفسه.

بصلاته، ثم عَرَج فعُرضت عليه الجنةُ والنار، حتى عَرَف الطبيب عقاقير الأدوية، قبل تركيب الأدوية، يالها من ليلةٍ، فَلَّ عُرْفَ[1] حَدِّ سيف ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] ظنّت الملائكة أن الآيات تختص بالسماء، فإذا آية الأرض قد عَلَت، فأقبلت رؤساء الأملاك، تُحيّي الرئيس الأكبر.

كل الأنبياء تقول يوم القيامة: نفسي نفسي، وهو يقول: «**أمتي أمتي**»، فإذا سجد، قيل: «**ارفع رأسك، وقُل يُسمَع لك**»[2].

يا من هو في جملة جنود هذا الشجاع، أيحسن بك كل يوم هزيمة؟

لولا جدُّ أصحابه في جهادهم، وشجاعتهم في صفوف قتالهم ـ بعد الله ـ، لافتضح المتأخرون، فالحمد لله على البُزْلِ[3] كانوا بالليل رهبانًا وبالنهار فرسانًا، قطع الرسول ﷺ طَمَعَ من طَمِعَ في لحاقهم بحسام «**ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[4] وكيف تنال مرتبة الصديق بشيء وقر في صدره؟ أو منقبة المهيب والعدوّ يَفْرَق من ظلّه؟ أو مقام الوقور فالملائكة تستحي منه؟ أو فضيلة مزاحم الروح في منزلة «**كهارون من موسى**»[5].

---

(١) عُرْف: ما علا وارتفع.

(٢) متفق عليه.

(٣) الجمال القوية، ومنه:

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولة البُزْلِ القناعيسِ

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه، والمراد بهم الخلفاء الأربعة على الترتيب.

يئس والله الكهول من مقارنة سيّدَي كهول أهل الجنة[1] كما لم تطمع الشبابُ في مزاحمة سيّدَي شباب أهل الجنة[2]، متى التهبتْ في صحابة الأنبياء عزيمة كحُمْرَة جَمَرةِ حمزة؟ أو علا على العُلا كعُلى علي؟ لقد فاز بلقب الصدق طلحةُ الجود، كما سَعِدَ بالفضل **«حواريي»**[3] الزبير، وسما بصلاة النبي خلفه ابنُ عوف، كما قَرَّت بلفظ **«فداك أبي وأمي»**[4] عينُ سعدٍ، وفاز بالشهادة له بالجنة سعيد، كما عزّ ابن الجراح بلقب الأمين، ولم يذكر باسمه بالقرآن غير زيد، وأين في الموالي مثل سالم مولى أبي حذيفة وسلمان؟ ومن في الزهاد كمصعب وابن مظعون؟ وإنه لمسعُود عبد الله بن مسعود، وطوبى ثم طوبى لخبّابٍ وصهيب، ويا شرف المؤذنين بصوت بلال، وأي بيت يشبه بيت أبي أيوب، ومن زينُ القرّاء إلا أُبَيُّ بن كعب؟ ومن في النقباء كابن زرارة وابن الربيع؟ وأنّى في الفقهاء مثل معاذ؟ ومن له زهد كزهد أبي ذر؟ وكفى للبُصَراءِ قائدًا ابنُ أم مكتوم، وإنه لقدوة المُؤْثِرين أبو الدحداح، ومن في قُوّام الليل مثل تميم؟ ومن صَبَرَ على القتل صَبر خبيب؟

كُلُّهم أخيار، وجميعهم أبرار، ولا مثل صاحب الغار، وأين نظيرُ فتَّاح

---

(١) أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

الأمصار؟ ومن يُشبه قتيل الدار؟ ولقد افتقروا إلى المجاهد بذي الفقار، بِحُبّ هؤلاء تُرجى الجنة وتتقى النار.

في قوله سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]:

لما تكامل بناء البيت، أرسل الله تعالى إلى خليله: أدِّ رسالة ﴿وَأَذِّن﴾ [الحج: ٢٧] فعلا على أبي قُبيس، ونادى في جميع الوجوه: إن ربكم قد بنى لكم بيتًا فحُجّوه، فأجاب من جرى القدر بحجه: «**لبيك اللّهم لبيك**» فكان ذلك اليوم أخًا ليوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لما رأيتُ مناديهم أَلَمّ بنا ... شددت مئزر إحرامي ولبّيتُ
وقلت للنفس: جدّي الآن واجتهدي ... وساعديني كهذا ما تمنيتُ
لو جئتكم قاصدًا أسعى على بصري ... لم أقض حقًا وأي الحقّ أديتُ

قطع القوم بِيْدَ السفر ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] فوافقهم الركاب ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

واعجبًا من حَنين النّوق، كأنها قد علمت وَجْد الرُكّاب، فجدّت بالسير.

ذَكّرَاها في سُرَاها ما عَرَاها ... فغدت تنفُخُ شوقًا في بُرَاها[1]

---

(١) البُرى: جمع بُرَة: حلقة توضع في أنف البعير يُقاد بها، فإذا جهده السير نفخ فيها. ومنه تضحية النبي ﷺ يوم الحديبية بجمل أبي جهل وفي أنفه بُرَةٌ من ذهب.

تقطع البر وتنسى ما جنى | سيرُها والسيرُ أمرٌ قد براها
كلّما ظنّت مِنًى قد قَربت | وتدانت دارُها طار كراها[1]
كربُها ما زال من عهد الصِّبا | خَلِيَّاهَا والصَّبا[2] فهو رضاها
غَنِّها يا أيها الحادي لها | بالحِمى أو بالنقا وانظر سُراها[3]
نَحِّ عنها السّوط يكفي شوقها | قد رأت في نفسها ما قد كفاها

أُمر المحرمون بالتعّري ليدخلوا بزيّ الفقراء، فيبين أثر ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].

تالله لقد جمعوا الخير ليلة جمع، ونالوا المُنى إذ دخلوا مِنًى

لله درُّ منًى وما جَمَعَت | وبكا الأحبة ليلة النَّفْرِ

حجّ جعفر الصادق فأراد أن يُلبِّي فتغيّر وجهه، فقيل له: مالك يا بن رسول الله ﷺ؟ فقال: أريد أن أُلبي فأخاف أن أسمع غيرَ الجواب.

وقف مطرّف وبكر[4] فقال مطرف: اللّهم لا تردَّهم من أجلي.

وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أنّي فيهم.

---

(١) الكرى: النوم.

(٢) الصِّبا: حداثة السن، الصَّبا: الشوق. أو الريح المشرقية.

(٣) السُّرى: السير ليلًا، وقال خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عند الصباح يحمد القوم السُّرى.

(٤) مطرّف بن عبد الله وبكر المزني.

وقام الفضيل بعرفة، فشغله البكاء عن الدعاء، فلما كادت الشمس تغرب، قال: واسوْأَتاهُ منك وإن عفوت.

وقف بعضُ الخائفين على قدم الإطراق والحياء فقيل له: لم لا تدعو؟ فقال: ثَمَّ[1] وحشة. قيل: هذا يوم العفو عن الذنوب. فبسط يده فوقع ميتًا.

هــذه دارُهُــم وأنــت محــبٌ ... مــا بقــاء الــدموع في الآمــاقِ

حجّ قوم من العبّاد فيهم عابدة، فجعلت تقول: أين بيتُ ربي؟ أين بيت ربّي؟ فيقولون: الآن ترينه.

إذا دنــت المنــازل زاد شــوقي ... ولا ســيما إذا دنــت الخيــام

فلما لاح البيت، قالوا لها: هذا بيت ربك، فخرجت تشتدُّ وتقول: بيت ربي، بيت ربي. حتى وضعت جبهتها[2] على البيت، فما رُفعت إلا ميتة.

واعجبًا لمن يقطع المفاوز ليرى البيت، فيشاهد آثار الأنبياء، كيف لا يقطع نفسه عن هواها؟

هاتيــك دارُهــم وهــذا مــاؤهم ... فاشرب وَرِدْ وشَرِقتَ إن لم تسقني

---

(١) ثَمَّ: هناك. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

(٢) الجبهة: ما بين الجبينين.

إنـما أهـل هـذه الـدار سَـفْرٌ، لا يحلّـون عقـد الرّكـاب إلا في غيرهـا، فـاعجبوا لـدار قـد أدبـرت والنفـوس عليهـا والهـة، ولأخـرى قـد أقبلـت والقلوب عنها غافلة.

ويحك! افتح عينيك؛ متى رأيت العقلَ يؤثرُ الفاني على الباقي فاعلم أنه قد مُسخ.

ما زالت الدنيا مُرَّةً في في[1] الغير، ولكن قد مرض ذوقُك.

يا مذنبين! مصيبتنا واحدة

وكل غريب للغريب نسيبُ

هلا تُبنا وأقلعنا؟ لعل الغَمَّ ينقلب غمامةً تُظلُّ من لفح الكرب.

* * * *

الرجولية قوّة معجونة في طين الطبع، والأنوثية رخاوة.

ولد السبع عزيز الهمة، وابن الذئب غدار، وكلّ إلى طبعه عائد.

الجدّ كل حركة، والكسل كلّه سكون.

إذا أردت أن تعـرف الـديك مـن الدجاجـة حـين يخـرج مـن البيـضة، فعلّقه بمنقاره، فإن تحرك فديك، وإلا فدجاجة.

فُتُورُك عن السعي في طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم.

---

(١) في الأولى: حرف جر، والثانية: الفم.

يا من قد بلغ أربعين سنة، وكلُّ عمره نومٌ وسِنَةَ، يا مُتعبًا في جمع المال بدنه، ثم لا يدري لمن قد خَزَنه، أَعْلِمْ هذه النفس الممتحنة، إنها بكسبها مرتهنة ألا يعتبر المغرور بمن قد دفنه؟ كم رأى جبارًا فارق مسكنه، ثم سَكن مسكن مسكنة(١).

يا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة، أين من أخذ صفو ما أنتم في كدره؟ أما وَعظكم في سَيْرِه بسرِه؟ بلى، قد حمل بريد الإنذار أخبارهم، وأراكم تصفُّحُ الآثار آثارهم.

محبة الدنيا محنة، كم أفردت من أرفدت، كم أخمدت من أخدمت، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

الدنيا والشيطان خارجيّان خارجان عليك، خارجان عنك، فالنفس عدوٌّ مباطن، ومن آداب الجهاد ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣].

ليس من بارَزَ بالمحاربَةِ كَمَنْ كَمِن، ما دامت النفس حيَّةً تسعى، فهي حيَّةٌ تسعى، أقلُّ فعل لها تمزيق العمر بكفّ التبذير، كالخرقاء وجَدَت صوفًا.

اخلُ بها في بيت الفكر ساعةً، وانظر: هل هي معك أو عليك؟

نادها بلسان التذكرة: يا نفسُ ذَهَبَ عرشُ بلقيس، وبَلِيَ جمال شيرين، وتمزّق فَرْش بوران، وبقي نسك رابعة.

(١) المسكنة: الفقر والقلة، وقيل: المذلّة.

يا نفسُ! صابري عطش الهجير يحصلُ الصوم، وتحزّمي تحزّمَ الأجير، فإنما هو يوم.

يا هذا! دَبِّر دينك كما تُدَبِّرُ دُنياك، لو علِق بثوبك مسمارٌ رجعتَ إلى وراءَ لتخلّصه، هذا مسمار الإضرار قد نشب بقلبك، فلو عُدت إلى الندم خطوتين تَخَلَّصْتَ، هيهات صَبيٌّ الغفلة كلما حُرّكَ نام.

من رقّ لبكاء الطفل لم يقدر على فِطامه.

كل يوم تحضر مجلس الذكر يقف لك الشيطان على الباب، فإذا خرجتَ كما دخلت، قال: فديتُ من لا يُفلح.

ما أشوقني إلى نسيم الرّنْدِ[1] ... يشفي كمدي إذا أتى مِنْ نجدِ
والشِّيحُ فإنه مُثيرُ الوجدِ ... شوقي له، ووجدي وجدي

إن لم يرجع المفقود، يا أرباب القلوب الضائعة ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].

****

إخواني! ذهبت الأيام، وكُتبت الآثام، وإنما ينفع الملامُ متيقِّظًا والسلام.

إخواني! خُلقنا نتقلّب في ستة أسفار، إلى أن يستقر بنا المنزل.

(١) الرّند: شجر طيب الريح.

السَّفَرُ الأول: سَفَرُ السّلالةِ من الطين.

والثاني: سفر النّطفة من الصلب.

والثالث: من البطون إلى الدنيا.

والرابع: من الدنيا إلى القبور.

والخامس: من القبور إلى العَرْض.

والسادس: إلى منزلة الإقامة.

وقد قطعنا نصف الطريق، وما بعدُ أصعب.

إخواني! السنون مراحل، والشهور فراسخ، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والطاعات رؤوس أموال، والمعاصي قطّاع الطريق، والربح الجنة، والخسران النار، لهذا الخطب شمّر المتقون عن سوق الجدّ في سوق المعاملة، كُلّما رأوا مراكب الحياة تخطف في بحر العمر، شغلهم هولُ ما هم فيه عن التنزّهِ في عجائب البحر، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقّي، فدخلوا بلد الوصل، وقد حازوا ربح الآخرة.

يا سائق الأظعان إن مع الصَّبا ... خبرًا لو أنك للصبا تتوقَّفُ
هبّت بعارفةٍ تسوق من الحِمَى ... أَرَجًا بَرِيًّا أهلُهُ يتعرَّفُ

خُذْ حديث القوم جملة، واقنع بالعنوان، السهر عندهم أحلى من رقدة

الفجر، أخبارهم أرقّ من نسيم السَّحَر، وآماقُهم بالدموع الدائمة ذائبة، والهمومُ على الجوانح جوانح[1].

كفى سائقًا بالشوق بين الأضالع ... لهيب اشتياق ثُمَّ فيض مدامع

فلو رأيت وَكْفَ شؤونهم[2] قلت: قد انقطع شريان الغمام، هذا يُعاتب نفسه على التقصير، وهذا يتفكر في هول المصير، وهذا يخاف من ناقد بصير.

أُعْفُ عني وأَقِلني عثرتي ... يا غياثي لمُلَمَّات الزَّمنْ
لا تُعاقبْني فقد عاقبني ... نومٌ أقلق روحي في البدنْ

****

هل الدهرُ إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعهُ تبقى، ولذاته تفنى
إلى تبعات في المعاد وموقفٍ ... نودُّ لديه أننا لم نكن كُنَّا

يا دنيء الهمَّة! أعجبتك خُضرةٌ على مزبلة، فكيف لو رأيت فردوس الملك؟

ألا إن بالأبصار عن عِبْرةٍ عمى ... ألا إنّ بالأسماع عن عِظةٍ صممْ

(١) الجوانح الأولى: جمع جانحة وهي الأضلاع، والثانية (جوانح): أي متعدِّيات جائرات.

(٢) وَكْفَ شؤونهم: الوكف: الصّبّ والسيلان، شؤونهم مجاري الدمع من العين، مفردها شأن.

سيكشفُ عن قلب الغبيِّ غطاؤه إذا حتفه يومًا على صدره جثمْ

الهممُ تتفاوت في جميع الحيوانات:

العنكبوت من حين يولد يَنسجُ لنفسه بيتًا، ولا يقبلُ مِنَّةَ الأُمّ، والحيّة تطلبُ ما حفره غيرها إذ طبعها الظلم.

الغُراب يتّبعُ الجيف، والأسد لا يأكل البائت.

الكلب يُنضنِضُ[1] لتُرمى له لقمة، والفيل يُتملّق حتى يأكل.

للصيد كلاب، وللمدبغة كلاب.

أين الأنفة؟ النَّحْلُ يغضب فيُترضّى من لجاج، والخنفساء تُطرد فتعود.

الاختبار يُظهر جواهر الرجال، بَعَثَتْ بلقيسُ إلى سليمان هديةً لتسبرُ بها قدْر همّته، فإن رأتها قاصرة، علِمت أنه لا يصلُح للمعاشرة، وإن رأتها عالية تطلب ما هو أعلى، تيقّنت أنه يصلح.

يا هذا! الدنيا هدية بلقيس، فهل تقبلُها، أو تطلب ما هو أنفس منها؟

ويحك! أَحْسَنُ ما في الدنيا قبيح؛ لأنه يُشغل عمّا هو أحسن منه.

ويحك! إن الأرباح الكثيرة في الأسفار البعيدة.

الصبر والهوى ضُرّتان، فاختر أحسن الضُّرَّتين، فما يمكن الجمع.

(١) ينضنض: يحرك لسانه.

ويحك! كلّما أوغلت في الهوى زاد التعرقل.

ويحك! ما يساوي النصاب المسروق قطع اليد.

إلى كـم عِتـابٌ يـسدُّ الفـضا   سـلام علـيكم مَـضَى مـا مـضى

****

الزمان أنصحُ المؤدِّبين، وأفصحُ المؤذِّنين، فانتبهوا بإيقاظه، واعتبروا بإنقاضه.

لله درّ العارفين بزمانهم! إذا باعوا ما شَانَهُم بإصلاح شأنهم، ما أقلَّ ما تعبو! وما أيسر ما نصبُوا! وما زالوا حتى نالوا ما طلبوه، صبّحوا منزل النجاة وأنت في اللهو نائم؟

يا رجالًا! ما بانت رجوليّتُهم إلا بالعمائم، يا إخوان الأمل! قد بقي القليلُ، وتفنى المواسم، أين أنتم من القوم؟ ما قاعد كقائم.

صـحبَ اللهُ راكبـين إلى العـزِّ   طريقًـا مـن المخافـة وَعْـرًا

شربـوا المـوت في الكريهـة حُلـوًا   خوفَ أن يشربوا من الضّيم مُرًّا

أَنِفَ القوم من مزاحمة الخلق في سوق الهوى، وقَوِيَ كَرْبُ شوقهم فلم يحتملوا حصر الدنيا، فخرجوا إلى فضاء العزّ في صحراء التقوى، وضربوا مخيّم الجدّ في ساحة الهدى، وترنمت بلابلُ بلبالهم[1] في ظلام

---

(١) بلبالهم: الهم ووسواس الصدر، يشير إلى همّ الآخرة.

الدّجى، فلو رأيت حزينهم يطلب الرضا على جمر الغَضَا، فيا محبوسًا عنهم في سِجْنِ الحرص والمُنى، إن خرجت يومًا من سجنك لترويح شَجَنِكَ من غمّ البلوى، فعرّج بذياك الوادي.

حدّث نفسك بأرض نجد يَهُنْ عليها عبور العقبة.

يا صبيان التوبة! هِلالُكم خفي، فدوموا على المعاملة يَصِرْ بدرًا، ولابد من ضيقٍ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الطبع يَحِنُّ إلى المألوف، والولد يطلب ما يشتهي، والزوجة تروم سعة النفقة، والورعُ يختم كيسَ التصرف ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١]، إنما تقع الكلفة على قدر الطاقة، لمّا كان الطائر يحتاج أن يَزُقَّ فرخَه، لم يُحملْ عليه إلا تدبير بيضتين، ولما كانت الدجاجةُ تحضن ولا تُطعِم كان بيضها أكثر، ولما كانت الضَبَّةُ[1] لا تحضن ولا تُطعم صارت تبيض ستين بيضة، وتسدُّ الباب عليهن، وتعدُّ الأيام فتنبشهنّ فيُخرجن.

كانوا إذا ضيّق الخوفُ عليهم الخِناقَ نَفَّسُوهُ بالرجاء.

إخواني! الدنيا غرّارةٌ غدّارة خدّاعة مكّارةٌ، تُظنُّ مقيمةٌ وهي سيّارة، ومُصَالِحَةٌ وقد شَنّت الغارة.

* * * *

---

(١) الضبّة: أنثى الضب.

ستُخَلِّي الدنيا ومالَكَ إلا … ما تبلّغت أو تزودت منها

كأنك بالموت وقد خطف، ثم عاد إلى الباقي وعَطَف، تنبّه لنفسك يابن النُّطف، فقد حاذى الرامي الهدف.

ما للعيون قد أخلقت أنوارُها؟ وكَثُرَ نظرها إلى الحرام فقلّ بكاؤها؟

هبّت والله دَبُورُ الذنوب، فتركت الأجسام بلا قلوب!

أين الفهم والتأمل؟ إن لم يكن جميلٌ فليكن تجمُّلٌ.

يا هذا! الدنيا وراءك، والأخرى أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة، إنما يعجب الدنيا من لا فهم له.

لُعَبُ الخيال يحسبها الطفل حقيقة، وأما العاقل فيعلم ما وراء الستر.

الدنيا نهر طالوت والفضائل تُنادي ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] فإذا قامت الفاقةُ مقام ابن أم مكتوم[1] أبيحت له رخصة ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فأما أهل الغفلة فارتووا، فلمّا قامت حرب الهوى، ثبطتهم البِطْنَةُ، فنادوا بألسنة العجز ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٤٩] وأقبلَ مُضمَّرُ الجِدِّ فحاز قَصَب السبق.

كلّ الشرّ في الشَّرَه، واللذةُ خِناق من عسل، ومن تبصّر تصبّر.

---

(١) أي مقام الأعمى، والمعنى: ألجأته الضرورة.

الحزم مطيّة النُّجْح، الطمع مركب التلف، التواني أبو الفقر، البطالة أم الخسران، التفريط أخو الندم، الكسل ابن عم الحسرة، وما يحصل بَرْدُ العيش إلا بحرّ التعب، ما العزُّ إلا تحت ثوب الكدّ، على قدر الاجتهاد تعلو الرتب.

كان ذو البجادين يتيمًا، فلّما عَمّهُ الفقر كفله عَمُّهُ، فنازعته النفس إلى الإسلام، فهمّ بالنهوض، فإذا بقيّةُ المرض مانعة، فقعد على انتظار العمِّ، فانتهى المرض، فصارت الهمّة عزيمة، فنفذ الصبرُ، فناداه صدقُ الوجد:

إلى كم حبسُها تشكو المضيقا	أَثِرْهَا رُبّما وجدت طريقا
أَجِلْهَا تطلبُ القُصوى ودَعْها	سدًى يرمي الغُروبُ بها الشُّروقا
أتعقِلُها وتقنع بالهوينى	تكونُ إذن بذِلّتها خليقا
ولم يُشفق على حَسَب غلامٌ	يكون على ركائبه شفيقا

فقال: يا عمّ كنتُ انتظر سلامتك بإسلامك، وما أرى زَمِنَ[1] زمنك ينشط. فقال: والله لئن أسلمتَ لأنتزعن كل ما أعطيتك.

فصاح لسان الشوق: نظرة من محمد ﷺ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، هذا مذهب المحبِّين، إجماعًا من غير خلاف.

فلما تجرَّد لطلب الثواب، جرّده العمُّ من الثياب، فناولته الأم بجادًا[2]

(١) الزَّمِن: المشلول.

(٢) البجاد: الكساء الغليظ.

فقطّعه لسَفَر المحبّة، فائتزرَ وارتدى، وغدا في هيئة «**رُبَّ أشعث أغبر**»[١].

فنادى صائح الجهاد في جيش العسرة، فتبع ساقة الأحباب على ساقٍ، والمُحِبُّ لا يرى طول الطريق، إنما يتلمّحُ المَقْصِدَ.

ألا بَلَّغَ الله الحمى من يريده وبلّغ أكناف الحمى من يريدُها

فنزل الرسولُ ﷺ في حفرته، يُمهّدُ له اللحد، وجعل يقول: «**اللّهم إني أمسيتُ راضيًا عنه فارض عنه**» فصاح ابن مسعود: ليتني كنت صاحب الحفرة[٢].

كذلك الفخر يا همم الرجال تعالي فانظري كيف الفِعال

❊❊❊❊

ويعرفُ أخلاق الجبانِ جوادُهُ فيجهُدهُ كرّاً ويُرْهِقُهُ ذُعرا

ومن يحْلُ تِطْلابُ المعالي بصدره يجد حُلوَ ما يُعطاهُ من غيرها مُرَّا

هلّا شددت الحيازم، وقمت قيام حازَم، تقصدُ الخير ولكن ما تلازم.

حريمُ العزم الصادق حرامٌ على المتردِّد، متى تحزَّم العزمُ هَزَم، لو رأيتَ صاحبَ العزم وقد سَرَى حين رقدت السراحين[٣] بهمَّةٍ تحُلُّ فوق

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر القصة في سيرة ابن هشام (٢/ ٥٧٢، ٥٢٨).

(٣) السراحين: الذئاب.

الفرقد[1] فلنفسه نفاسةٌ، وَلِأَنْفِهِ أَنَفَةٌ، سهم الشَّهم مُفَوَّقٌ[2] فوق عُرضَةِ الغرض[3].

كان الفضيل ميتًا بالذنوب، وابن أدهم مقتولًا بالكبر، والسَّبْتي هالكًا بالملك، والجنيدُ من جَيِّد الجند، فنُفِخَ في صور المواعظ، فدبّت أرواح الهدى في موتى الهوى، فانشقّت عنهم قبور الغفلة، وصاح إسرافيل الاعتبار: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] إنما سمع الفضيل آيةً، فذلّت نفسه لها واستكانت، وهي كانت.

إنما زُجر ابن أدهم بكلمة كَلَمَتْ[4] قلبه، فهُدِي. لاحت للقوم جادّة السُّلوك فـ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

هيهات منك غبار ذلك الموكب، ركبوا سُفُن العزم فهبّت لهم رياح العون، فقطعوا بالعلم لجج الجهل، فوصلوا إلى إقليم أرض الفهم، فأرسوا على ساحل بلد العبادة.

بَلِّغ سلامي بالغُوَيْر[5] جيرةً ... قلبي وإن حالوا إليهم تائقُ
فارقتهم كُرْهًا وليتَ أنّني ... للرّوح من بعدهم مفارقُ

---

(١) نجم قريب من القطب. ومعه نجم آخر فهما الفرقدان.

(٢) فاق السهم: أي وضع فُوْقَهُ في الوتر ليرمي به.

(٣) الغرض: الهدف المرميّ.

(٤) كلمت: جرحت.

(٥) الغوير: ماء لبني كلب.

ولست أنساهم وإن تقطّعت بالبُعد فيما بيننا علائقُ

يا نفسُ! عند ذكر الصالحين تبكين، وعند شرح جِدِّهم تئنّين، وإذا تصوّرتِ طيب عيشهم تحنّين، فإذا عَرَفْتِ قيامهم بالعبادة تنكبين[1].

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤم عِرْضُهُ فكل رداءٍ يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيلُ

لقي بعضُ الجند إبراهيم بن أدهم في البرية، فقال له: أين العمران؟ فأومأ بيده إلى المقابر، فضربه فشجّ رأسه، فقيل له: هذا ابن أدهم، فرجع يعتذرُ إليه، فقال له إبراهيم: الرأس الذي يحتاج إلى اعتذارك تركته ببلخ.

ومر رجل به وهو ينظر كرْمًا[2] فقال: ناولني من هذا العنب، فقال: ما أذن لي صاحبُه، فقلب السوط وضرب رأسه، فجعل يطأطئ رأسه، ويقول: اضرب رأسًا طالما عصى الله.

من أجلكَ قد جعلتُ خدّي أرضًا للشامت والحسود حتى ترضى

****

عجبًا لذاكر الموت كيف يلهو؟ ولخائف الفوت كيف يسهو؟ ولمتيقّنِ حلول البلى ويزهو، وإذا ذُكرت له الآخر مرّ يلغو.

(١) تنكبين: تعدلين وتنصرفين.

(٢) الكرم: أشجار العنب.

إني أرقتُ وذكر الموت أرَّقني ... فقلتُ للدمع: أسعدْني فأسعدني
إن لم أبك لنفسي مشعرًا حزنا ... قبل الممات ولم آسف لها فمنِ؟
ومن سيعمرُ لي لحدي ويترُكني ... في حفرتي تَربَ الخدِّين والذَّقَنِ

أين من كان على نسائه شديد الغيرة؟ أما رَحَل عنهنّ واخترن غيره؟

أين من كان يسري آمنًا في سِرْبه[1]؟ أما قيل للتلفِ: خُذه، وسِرْ به؟

أعرْ سمعك الأصوات، فهل تسمع إلا فلانًا مات؟ أَجِلْ[2] بصَرك في الفلَوات، فهل ترى إلا القبور الدارسات؟

صابر غَبَش العيش، فقد دنا فجر الأجر.

احذر أن تُدفع دونك سفينة النجاة، فتستغيث وقت الفوْت ولا عاصم، كأنك بِكَ في قبرك، على فراش الندم، وإنه والله لأخشن من الجندل[3] فازرع في ربيع حياتك قبل جدوب أرض شخصك، وادّخر من وقت قدرتك لزمان عجزك، واعتبر رَحْلَكَ قبل رحيلك ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ [الزمر: ٥٦].

يا هذا! مثّل لنفسك صَرْعَةَ الموت، وما قد عزمت أن تفعل حينئذٍ وقت الأسر، فافعله وقت الإطلاق.

---

(١) السِّرْبُ: النفس والأهل والمال.
(٢) أَجِلْ: انظر وتأمل.
(٣) الجندل: الصخر العظيم.

أتبكي على لبُنى وأنت تركتها ... فكنت كآت حتفه وهو طائع
فيا قلب خبرني إذا شطت النوى ... بلبنى وبانت عنك ما أنت صانع

كأنك بحرب الموت قد قامت على ساق، فانهزمَتْ جيوش الأمل، وإذا بملك الموت قد بارز الروح، يجتذبها بخطاطيف الشدائد من تيار أوتار العروق، وقد أُوثِقَ كتافُ الذبيح، وحار البَصَر لشدة الهول، وملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبواب الجنة، وملائكةُ العذاب عن الشمال قد فتحوا أبواب النيران، وجميع المخلوقات تستوكفُ[1] الخبر، والكونُ كلّه قد قام على صيحة؛ إما أن يُقال: سَعِدَ فلان، أو شقي فلان، فحينئذ تتجلى أبصار ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ [الكهف: ١٠١] ويحك تهيأ لتلك الساعة، حَصّلْ زادًا قبل العَوْزِ.

تمتع من شميم عَرَارِ نجدٍ ... في بعد العشيّة من عرارِ

واأسفاه من حياةٍ على غرور، وموت على غفلة، ومنقلبٍ إلى حسرة، ووقوف يوم الحساب بلا حجّة.

يا هذا! مثّل نفسك في زاوية من زوايا جهنم، وأنت تبكي أبدًا، وأبوابها مُغلّقةٌ، وسقوفها مُطبقة، وهي سوداء مظلمة، ولا رفيق تأنس به، ولا صديق تشكو إليه، ولا نوم يريح، ولا نفَسٌ به تستريح.

****

(١) توكّف الخبر: توقّع الخبر وسأل عنه.

كم أخرج الموتُ نفسًا من دارها لم يُدارها، وكم أنزل أجسادًا بجارها لم يُجارها، وكم نقل ذاتًا ذات خطأٍ بأوزارها، وكم أجرى عيونًا كالغُيوث بَعْدَ بُعْدِ مزارها.

إخواني! قد حام الحِمَام[1] حول حِمَاكم، وصاح بكم إذ خلا النادي وناداكم، وأولاكم من النُّصح حقكم، فما أحقكم بالتدبرّ وأوْلاكُم، وهو عازم على اقتناصكم، وما المقصود سواكم.

يا من قد انطوى بُرْدُ شبابه، وخُبّئتْ خِلَعُ[2] تَلَفِه، وبلغتْ سفينته ساحل سفره، قف على ثنيّة الوداع، فلم تبقَ إلّا نظرةٌ تُغتنمُ، لو فتحت عين اليقظة لرأيت حيطان العمر قد تهدّمت، فبكيت على خراب دار الأجل.

ومشتّتُ الغَزَماتِ يُنفقُ عمره حيران لا ظَفَرٌ ولا إخفاقُ

يا أكمه البصر! لا حِيْلَةَ فيه لعيسى، يا طويل الرُّقاد! ولا نوم أهل الكهف، كيف يفلحُ من هو والكسل كندماني جذيمة؟

بينك وبين المتقين جبلُ الهوى، نزلوا بين يديه ونزلتَ خلفه، فاطوِ فضْلَ منزلٍ تلحقُ، لو علوت نَشْزَ[3] الجِدِّ، بانتْ بانةُ الوادي.

---

(١) الحِمَام: الموت.
(٢) الخِلَعُ: جميل اللباس.
(٣) النشز: المرتفع من الأرض.

يا مُقيدًا بقيود الطرد! ألق نفسك في الدُّجى على باب الذُّل، وقل: إلهي! كم لك سواي، ومالي سواك، فبفقري إليك وغناك عنّي، إلا عفوت عنّي.

يا هذا! ليس في المياه ما يقلعُ آثار الذنب من القلب إلا الدموعُ، فإن نَضَبَتْ ولم يزلِ الأثر فعليك بالاعتراف من بحر الاعتراف.

إذا وصلتم إلى وادي العقيق سلوا ... عن حالِ منقطعٍ أودى به السهرُ

وفتّشوا عن فؤادٍ هائمٍ قلقٍ ... قد ضاع مِنِّي فلا عينٌ ولا أثرُ

* * * *

أنجعُ الوسائل الذُّل، وأبلغُ الأسبابِ في العفوِ البكاءُ، والعيُّ عن ترتيب العذر بلاغة المنكسر.

يا من أشكو إليه ما يعلمُهَ ... والدمعُ يذيعُ كلّ ما أكتمُه

يا من يشيّعُ ببدنه الميْت، فأما قلبُه ففي البيت، أتُخلِّي بين الودودِ والدود؟ وتعود إلى المعاصي حين تعودُ، هلّا أجَلْتَ بالبالِ ذكر البالي؟ وقلت للنفس الجاهلة: هذا لي.

شيّع الحسن جنازةً فجلس على شفير القبر، فقال: إن أمرًا هذا آخره، لحقيقٌ أن يُزهد في أوله، وإن أمرًا هذا أوله، لحقيق أن يخاف آخره.

إخواني! كيف الأمن وهذا الفاروق يقول: لو أن لي طِلاعَ(١) الأرض

(١) طِلاعُ الأرض: ما يملؤها حتي يطلع عنها ويسيل.

ذهبًا وفضة لافتديتُ بها من هول ما أمامي، قبل أن أعلم ما الخبر.

ولما طُعن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لابنه: ضع خدي على التراب، فبكى حتى لصق الطين بعينيه، وجعل يقول: ويلي وويلَ أمي إن لم يرحمني ربي.

واعجبًا من خوف عمر مع كَمَاله، وأمنك مع نقصانك.

قيل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أيُّ رجل كان عمرُ؟ فقال: كان كالطائر الحَذِر، الذي كأنَّ له بكل طريق شَرَكًا.

يا عبد الطمع! طالع ديار الأحرار.

يا هذا! لو وقف مرضُك رجونا لك البرءَ، ولكن المرض يزيدُ، والعزمُ يضعُف.

متى يلتقي الألّافُ والعيسُ كلّما   تـصَعَّدْنَ مـن وادٍ هـبطنَ إلى وادِ

يا نائمًا طول الليل! أما تُحسُّ ببْرد السحر؟ لقد نَمَّ النسيم على الزهر، ودلّت أغاريدُ الحَمَامِ على دنو الفجر، صاح الديك فلم تنتبه[1] وأعاد فلم تُفقْ، فقَوَّى ضَرْب الجناحين لطمًا على غفلتك، صفّق ما ارتياحًا لِسَنَا الفجر، ولكن على الدّجى أسفًا.

****

(١) كان ﷺ إذا سمع الصائح (الديك) وثب. أي إلى صلاة الليل، وتأمل الوثوب، ليس فيه تراخٍ ولا تمطّي.

لله در أقـوام بـادروا أيـامَهم، وحـاذروا آثـامهم، جعلـوا الـصوم طعامهم، والصمت كلامهم، فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى، والقلوب في رياض الملكوت ترعى، قاموا لخوف القيامة بالأوامر، وقَفُوا أنفسهم على الخير، ما ترددوا كالمؤامر(١).

وَلِّ الدنيا ظهرك تَنُصُّ(٢) الآخرة لك نِقَابَها، تَعَرَّ عن الدنيا تُعَزَّ، وخذ قدر البُلغَةِ وَجُز تَفُزْ.

يا عميَّ البصيرة امش مع من يُبصر، تشبّه بالصالحين تُعَدُّ في الجُملة، لو سِرْتَ في حزب المتقين خطواتٍ، لعرفوا لك حق الصُّحبة، يا من كان لهم رفيقًا فأصبح لا يعرف لهم طريقًا، اطلب اليوم أخبارهم، واتبع في السلوك آثارهم.

يا من نَسَبُهُ مُعرِقٌ في الموتى، وقد وعظوه وإن لم يسمع صوتًا، أدرك أمرك فما تأمن فوتًا.

ألا كلُّ حي هالكٌ وابن هالكٍ ... وذو نسبٍ في الهالكين عريق
فقل لغريب الدار إنك راحلٌ ... إلى منزلٍ نأي المحل سحيق
تُجَرِّعُ فيها هالكًا فقد هالكٍ ... وتُشجي فريقًا منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها ... قرارًا فما دنياك غير طريق

(١) المؤامر: المتردد المضطرب.
(٢) تنصُّ: ترفع.

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت ... لـه عـن عـدوٍّ في ثيـاب صـديق
عليـك بـدارٍ لا يـزولُ ظلالهـا ... ولا يتــأذّى أهلهـا بمـضيق

يا راقدًا وقد أُوذنَ بالرحيل، يا مشيّدَ البنيان في مدارج السيول، بادر بالعمل قبل انقضاء العمر، ولا تنس من يَعُدُّ الأنفاس للقائك.

ومـا هـي إلا ليلـةٌ ثـم يومُهـا ... ويـومٌ إلى يـومٍ وشـهرٌ إلى شـهر
مطايـا يُقـرِّبن الجديـد إلى الـبلَى ... ويُـدنين أشـلاء الـصحيح إلى القـبر
ويـتركن أزواج الغيـورِ لغـيره ... ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوَفر

قالت الدنيا لابن أدهم: لو عُدت إلى قصرك فتعبّدت فيه، فقال عَزْمُه: كلا، ليس للمبتوتة[1] نفقةٌ ولا سُكنى.

سلامٌ على اللذات واللّهو والصِّبا ... سـلامَ وداعٍ لا سـلام قـدومِ

لاح له جمال الآخرة، فثبتتْ في النظر عين اليقين، فتمكّن الحُبُّ من حَبَّةِ القلب.

رويـدًا أيُّهـا الحـادي ... سُـقيت الـرائح الغـادي
فتلـك الـدار قـد راحـت ... وهـذا الربـع والـوادي

****

الدنيا دار المحن، ودائرة الفتن، وساكنها بلا وطن، واللبيب فيها

(١) المبتوتة: المطلقة طلاقًا بائنًا.

فطن.

ويحك! دعْ محبةَ الدنيا، فعابر السبيل لا يتوطّنُ، واعجبًا تضيع منك حَبَّةٌ فتبكي، وقد ضاع عمرك وأنت تضحك! تستوفي مكيال هواك، وتطفف في كيل صلاتك ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: ٩٥].

تقف ببدنك في المحراب، ووجهكُ ملتفتٌ للجِرَاب، ما يصلحُ مثلك في الحرب، أنت تفضحُ صفَّ الجهاد، ما يحسُنُ الدرعُ على مُخَنّث[١].

خمسين سنة في مكتب التعليم وما حَذَقْتَ أبا جاد، غدًا توبخ وقت عرض ألواح ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧] بضاعتك أيام عمرك وقد انتهبها قطّاع الطريق، ورجعت إلى بيت الأسفِ بأعدالٍ[٢] فارغة، فانظر لعلّهُ تخلّف فيها شيء تعامِلُ به بقيّة عمرك، فعمر المؤمن لا قيمة له[٣].

كان فُضالة بن صيفي كثير البكاء، فدخل عليه رجل وهو يبكي، فقال لزوجته: ما شأنه؟ قالت: زعم أنه يريد سفرًا بعيدًا وما له زاد.

يا هذا! الآخرة دارٌ سُكّانها الأخلاق الجميلة، فصادقوا اليوم سكانها لتنزلوا عليهم يوم القدوم.

يا هذا! فني العمرُ في خدمة البدن، وحوائجُ القلب كلُّها واقفة،

(١) المُخنَّثُ: المتشبه بالنساء.

(٢) الأعدال: جمع عِدْل، وهو الكِيس.

(٣) لا قيمة له: أي لا يُقدر بثمن، لأن سواه يعوض دونه.

انهض إلى التلافي قبل التلف، البَهَق يداوي قبل أن يصير برصًا، أما سمعت في بداية الزلل ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وفي وسطه ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] وفي آخره: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أتبكي على معاصيك والإصرار يضحك؟! أتُخادِعُ التوبةَ وإنما تمكر بدينك؟

رأيتُ الناس خُدَّاعًا إلى جانب خُدّاع
يعيشون مع الذئب ويبكون مع الراعي

ابك على ظلام قلبك يضيء، إذا بكت السحابُ على الربى تبسّمت. لعلّ في بستان التوبة ثمرًا قد توجّه صلاحه.

* * * *

أيها المشغول باللذات الفانيات! متى تستعد لِمُلِمَّاتِ المهات؟ متى تستدرك هفوات الفوات؟ أتطمع مع حب الوسادات في لحاق السادات؟ وأنّى تجعلك مثلهم أنَّى وهيهات؟

يا مدمن اللذات ناسٍ قبرَهُ اذكر تهجُّم هادمِ اللذاتِ
تمضي حلاوة ما احتقبت[1] وبعده تبقى عليك مرارة التبعات

(١) احتقبت: ارتكبت الإثم.

يا حسرة العاصين يومَ معادهم ... ولو أنهم سيقوا إلى الجنات
لو لم يكن إلا الحياءُ من الذي ... ستر الذنوب لأكثروا الحسرات

يا مؤثر الفاني على الباقي! غلطةٌ لا كالأغلاط، ألك قدمٌ يصلح للمشي على الصراط؟

وكم من فتىً يمسي ويُصبح آمنًا ... وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري

واعجبًا لنائم وهو مطلوب، ولضاحك وعليه ذنوب، أين الدموع السواجم، قبل المنايا الهواجم؟ أين القلق الدائم للذنوب القدائم؟

يا من سينأى عن بنيه ... كما نأى عنه أبوهُ

يا مؤخرًا توبته بمطل التسويف ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ [المرسلات: ١٢] خُلِقَ قلبك صافيًا في الأصل، وإنما كدّرته الخطايا، وفي الخلوة يركُدُ الكَدَرُ، تلَمّحْ سبب هذا التكدير، فما يخفى الحالُ على مُتَلَمِّح.

يا مختار الكون! وما يعرفُ قدر نفسه، أما أُسجِدَت الملائكةُ بالأمس لك، وجُعلوا في خدمتك؟ لما تكبَّر عليك إبليسُ وقد عبد الله سنين، طرده اللهُ، أفتصافيه على خلاف الله؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠].

قال سَرِيّ السَّقَطِي: ما فاتني وردٌ قط فقدِرْتُ على إعادته، وذلك أن الزمان الذي مضى فيه وظيفةٌ أخرى.

هبَّت عواصف الأقدار في بِيْد الأكوان، فتقلّب الوجودُ وعمَّ الخبر، فلّما ركدت الريحُ، إذا أبو طالب غريقٌ في لجة الهلاك، وسلمان على ساحل السلامة، والوليد بن المغيرة يقدُم قومَهُ في التيه، وصهيب قد قَدِم بقافلة الروم، وأبو جهل في رَقْدَةِ المخالفة، وبلالٌ ينادي: الصلاة خير من النوم.

لما قُضيت في القِدَم سلامة سلمان، أقبل يُناظر أباه في دينٍ قد أباهُ، فلم يعرف أبوه جوابًا إلا القيد، وهذا الجواب المرذول قديم من يوم ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فنزل به ضيف ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥] فنال بإكرامهِ رتبة «**سلمان منا**»[1].

سَمِعَ أن ركبًا على نيّة السفر، فسَرَق نفسه من حِرْزِ أبيه، ولا قَطْعَ، فوقَفَ نفسه على خدمة الأدلّاءِ وقوف الأذلاء، فلـمّا أحس الرهبان بانقطاع دولتهم، سَلّمُوا إليه أعلام الإعلام على علامات نبينا محمد ﷺ، وقالوا له: إن زمنه قد أظلَّ، فاحذر أن تضلَّ، وإنه يخرج بأرض العرب، ثم يهاجر إلى أرض بين حرّتين، فلو رأيتموه قد فَلَى الفلا[2] والدليلُ شوقُه، رحل مع رفقةٍ لم يرفقوا ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] فابتاعه يهودي بالمدينة[3]، فلما رأى الحرتين توقد حَرُّ شَوْقِهِ، وما علم

(١) حديث النبي ﷺ: «**سلمان منا آل البيت**» رواه الطبراني والحاكم وصححه السيوطي.

(٢) فلى الفلا: قطع الفلاة في رحلة الهجرة.

(٣) ابتاعه أولًا يهودي بوادي القرى فلبث عنده، ثم ابتاعه منه يهودي من بني قريظة فقدم به المدينة.

المنزل بوجد النازل ، فلما رأى الحرّتين تَوَقَّد حَرُّ شوقِه، وما عَلِمَ المنزلُ بوَجْد النازل.

أيـــدري الرّبـــعُ أيّ دمٍ أراقـــا وأيَّ قلـوبِ هـذا الركـب شـاقَا؟
لنـــا ولأهلـــه أبـــدًا قلـــوبٌ تُلاقـــي في جـسومٍ مـا تَلَاقَـى

فبينا هو يُكابد ساعات الانتظار، قدم البشيرُ بقدوم البشير، وسلمان في رأس نخلة، فكاد القلقُ يلقيه، لولا أن الحزم أمسكه، كما جرى يوم ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠] ثُمَّ عجَّل النزول، ليلقى ركب البشارة.

خليليَّ من نجدٍ قفا بي على الرُّبى فقد هبَّ من تلك الرسوم نسيمُ

فصاح به المالك: مالك ولهذا؟ انصرف إلى شُغلك، فأجاب لسان وجده: كيف انصرافي ولي في داركم شغل، فأخذ يضربه، فأخذ حاله يترنّمُ لو سمع الأطروش:

خلـــيليَّ لا والله مـــا أنـــا مـــنكما إذا عَلَـــمٌ مـــن آل لـــيلى بـــداليا

فلما لقي الرسول ﷺ عرض نسخة الرهبان بكتاب الأصل، فوافق ووافق[1]، ولسان التوفيق: يا محمد! أنت تريد أبا طالب ونحن نريد سلمان.

(١) فوافق ووافق: أي وافق ما عنده من علامات النبوة التي تلقّاها عن أهل الكتاب فوافق على الإسلم ووُّفق له.

أبو طالب، إذا سئل عن اسمه قال: عبد مناف، وإذا انتسب افتخر بالآباء، وإذا ذُكِرتْ الأموال عَدَّ الإبل.

وسلمان إذا سئل عن اسمه قال: عبد الله، وعن نسبه، قال: ابن الإسلام، وعن لباسه، قال: التواضع، وعن طعامه، قال: الجوع، وعن شرابه، قال: الدموع، وعن وسَادِهِ، قال: السهر، وعن فخره، قال: «سلمان منا».

إن بيتًا أنت ساكنه ... غيرُ محتاجٍ إلى السُّرُجِ

****

وَعَظَتْكَ أجداثٌ خُفُتْ ... فيهنَّ أجسادٌ سُبُتْ

وتكلمتْ لك بالبِلَى ... منهن ألسنة صُمُتْ

وأرتْك قَبرَكَ في القبور ... وأنت حيٌّ لم تمت

إخواني! هذا الموت قد غدا يقول: الرحيل غدًا، كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصّور؟ فأسمع العظام البالية تحت المَدَر، فاجتمعت من بطون السباع، وحواصل الطير، وقامت تبكي على فوات الخير، وسار الخلائق كلهم حفاةً عراةً، كلَّ منهم مشغولٌ بما عَرَاه[1] وقد رُجَّت الأرض وبسَّت الجبال، وذُهلت العقول، وشابت الأطفال.

أيا نفس حقك أن تجزعي ... ويا عين إياك أن تهجعي

---

(١) عَرَاهُ: نابه ونزل به.

ويا أذني إن دعاك الهوى فإياك إياك أن تسمعي

يا أهل الذنوب والخطايا! ـ وكلنا كذلك ـ ألكم صبرٌ على العقوبة؟ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١٥] كيف أَمِنَ العُصاةُ وعيد ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] كيف نسوا غِبَّ الزّلل؟ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧].

إخواني! مَثِّلوا أهل الجنة ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥] و﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨] ومعهم توقيع ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: ٦٢] فلما وصلوا إلى الجنان ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وبدأهم الخزنة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ وبشّروهم بالبقاء الدائم ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقَرَأت الأملاك من سجل الإملاك مبلغ الثمن ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] وجميع المرادات داخلة في إقطاع ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] وأتم التمام ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وهذا السرورُ بتلك الكُربْ وهذا النعيم بهذا التّعَبْ

ويحك! مَيِّز بعقلك بين الدارين، وأحضر الذنب والعقاب والْـمَح العاقبتين.

هذا الحيوان البهيم ينظر في العواقب، هذا الأَيلُ[1] يأكل الحيات، فيشتد عطشُه، فيحوم حول الماء ولا يشربُ، لعلمه أن الماء يُنفذ السموم إلى أماكن لا يبلغها الطعام، ومن عادته أن يسقطُ قرنهُ كل سنة، وهو سلاحُه، فيختفي إلى أن ينبت.

هذه النملة تدّخرُ في الصيف للشتاء، فإذا خافت عَفَنَ الحبِّ أخرجته إلى الهواء، فإذا حذرت أن ينبتَ نقرت موضع القطمير.

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ... ولم تر في الباقين ما يصنع الدهر[2]
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم ... محاها مجال الريح بعدك والقطر
على ذاك مروا أجمعون وهكذا ... يمرون حتى يستردهم الحشر
فحتام لا تصحو وقد قرب المدى ... وحتام لا ينجاب عن قلبك السكر
بل سوف تصحو حين ينكشف الغطا ... وتذكر قولي حين لا ينفع الذكر

يا مضمرًا حُبّ الدنيا إضمار الجمل الحقود، إن أردت دواء حُبها فأول ما في الشُّربة الصبر.

قال محمد بن واسع: لو رأيتم رجلًا في الجنة يبكي، أما كنتم تعجبون؟ قالوا: بلى، قال: فأعجب منه في الدنيا رجلٌ يضحكُ ولا يدري إلام يصير؟

---

(١) الأَيلُ: الوعلُ.

(٢) بمعنى أنه ظرف الفعل زمانًا ومكانًا لا أنه الفاعل، وهذا كثير في كلام العرب.

قلوب العابدين مملوءة بذكر الحبيب، ليس فيها سعة لغيره.

قد صِيغ قلبي على مقدار حُبِّهمُ ... فـما لحُـبّ سـواهَم فيـه مُتّـسعُ

إن نطقوا فبذكره، وإن تحركوا فبأمره، وإن فرحوا فلقُربه، وإن تَرَحوا فلعتبه.

والله ما طلعتْ شمسٌ ولا غَرَبت ... إلا وأنـت مِنِّي قلبي وَوَسْوَاسي
ولا جلـست إلى قـوم أحـدّثُهم ... إلا وأنـت حـديثي بـين جُـلَّاسي

أقـواتُهم ذكـر الحبيـب، وأوقـاتُهم بالمناجـاة تطيـبُ، لا يـصبرون عنـه لحظة، ولا يتكلمون في غير رضاه بلفظة.

كـم تُدْرَسُ أخبارُهم ومـا تـدْرُس[1] لئن طـواهم الفناء، لقـد نـشرهم الثناء.

* * * *

أيها الحاطبُ على أزرهِ[2] وزرًا وآثامًا! تنبّهْ تَرَ الـدنيا أحلى مـا كانـت أحلامًا، كـم نكَّس الموت فيهـا أعلامًـا أعلى مـا[3]، كـم أذل بقهـره أقوامًـا أقوى ما، لا كان مفتاحٌ أمسى له الموت ختامًا.

تركـــوا كـــلّ ذرْوة مـــن أشـــمِّ ... يحسرُ الطرْفَ ثـمْ حلّـوا الرَّغامـا

---

(١) تُدْرَس: من المدارسة والمطالعة، تَدْرُس: لا تنمحي ولا تزول آثارها.

(٢) الأَزْر: الظهر.

(٣) أي أعلى ما تكون. وهذا من الجناس اللفظي.

التبعات تبقى واللذات تمرّ، بانت من الدنيا عيوبُها وليس فيها ما يَغُرُّ، وإنما يعشقها الجهول، ويأنف منها الحر.

من أخطأته سهام المنيّة قيّده عِقَالُ الهرم، ألا يتيقظ الغافلُ بأضرابه؟! ألا ينتهي العقال بأوصابه[1] أيسلَمُ والرامي تحت ثيابه؟!

يا مريضًا قد أتعب الأطباءَ ما به! ويحك! أخوك من عذلك لا من عذرك، صديقك من صَدَقَكَ لا من صَدَّقَكَ.

ويحك! من يطربك يطغيك، وما لا يعنيك يُعنّيك.

ويحك يا عبد الهوى! إن دعى أمّنْتَ، وإن ادّعى آمنت؛ احذر، ولقد أعذر من أنذر، وما قصّر من بصّر.

لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل أربابها، لجؤوا إلى حصن الزهد، كما يأوي الصيدُ المذعور إلى الحرم، لاح له حب المُشْتهى، فلما مدّوا إليه أيدي التناول بان لأبصار البصائر خيطُ الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر، وصوّتوا إلى الرعيل الثاني ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] جمعوا الرحل قبل الرحيل، وشمّروا في سواء السبيل، فالناس في الغفلات، وهم في قطع الفلاة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤] لو رأيت مطايا أجسامهم، وقد آذاها السُّرَى[2] فهي تحنُّ مما تُجِنُّ[3] فتبكي

(١) الأوصاب: الأمراض.
(٢) السُّرى: المشي في الليل.
(٣) تجُنُّ: تخفي في صدرها.

الحداة.

حنّتْ فأذكت لوعتي حنينا ... أشكو من البين وتشكو البَيْنَا
يقول صحبي: أترى آثارهم ... نَعَمْ، ولكن لا أرى القطينا
أكلما لاح لعيني بارقٌ ... بكت فأبدت سِرّي المصونا؟!
لا تأخذوا قلبي بذنب مقلتي ... وعذِّبوا الخائن لا الأمينا

يا هذا! سُرَادِقُ المحبة لا يُضربَ إلا في قاع نَزِهٍ.

وكم ناحلٍ بين تلك الخيامِ ... تَحْسَبُه بعضَ أطنابِها

****

أشتاقُكُمْ ويحولُ العزمُ دونَكُمُ ... فأدّعي بُعْدَكُمْ عني وأعتذرُ
وأشتكي خطرًا بيني وبينكمُ ... وآية الشوق أن يُستصغرَ الخطرُ

إن هممت فبادر، وإن عزمت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضي بالصف الآخر.

إذا لعب الرجالُ بكلِّ شيء ... رأيتُ الحُبَّ يلعب بالرجال

قال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: خُلِقَتْ لي نفسٌ توّاقة، لم تزل تتوقُ إلى الإمارة، فلما نالتها تاقت إلى الخلافة، فلمّا نالتها تاقت إلى الجنة.

وقال أصحابي: الفرارُ أو الردى ... فقلت: هما أمران أحلاهما مُرُّ
سيذكرني قومي إذا جَدَّ جِدَّهُمْ ... وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

ولو سدّ غيري ما سددتُ اكتفوا به وما كان يغلُو التّبْرُ لو نفقَ الصُّفْرُ[1]

ونحـن أنـاسٌ لا توسـط بيننـا لنـا الـصّدرُ دون العـالمين أو القـبرُ

تهـونُ علينـا في المعـالي نفوسُـنَا ومن يَخْطُبِ الحسناءَ لم يُغْلِهِ المَسَهْرُ

ابتُليتِ الهمم العالية بعشق الفضائل، شجرُ المكارهِ يُثمر المكارم.

متى لاحت الفريسة قذفت الغابةُ السَّبُعَ.

إذا استقام للجواد الشّوط لم يُحْوِج راكبه إلى السّوط.

من ضرب يوم الوغى وجه الهوى بسهم، ضرب مع الشجعان يوم القسمة بسهم.

إذا طلع نجم الهمَّة في ظلام ليل البَطالة ثم رِدفهُ قمر العزيمة أشرق نور التوفيق وضياءَ الفلاح.

يا طالبًا للدّعة أخطأت الطريق، علّة الراحة التعب، إن لم تكن أسدًا في العزم ولا غزالًا في السبق فلا تتشعلب.

من كَدّ كَدّ العبيد تنعَّم تنعُّم الأحرار.

من امتطى راحلة الشوق لم يشقّ عليه بُعدُ السفر.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتـأتي عـلى قـدر الكـرام المكـارمُ

إخواني! إلى متى سُكْرٌ عن المقصود؟ ألا صحو ساعة؟

---

(١) التّبر: فتات الذهب قبل أن يُصاغ. والصُّفر: النحاس.

مثلُ أهل الدنيا في غفلتهم وطول آمالهم كمثل الحاج، نزلوا منزلًا، فقام أقوام يقطعون الصخور، ويبنون البيوت، فقال المتيقظون: ويحكم! ما هذا البله؟ الرحيل بعد ساعة.

لو عَلِمَ الوَرْدُ قِصَرَ عمره ما تبسّم.

إذا المــرء كانــت لــه فكــرة ففــي كــل شيء لــه عــبرةٌ

تزوّج صلةُ بن أُشِيْم فأدخله ابن أخيه الحمام، ثم أُدخل إلى بيت المرأة وقد طُيِّب فقام يُصلي، فمدَّ الصلاة إلى الفجر، فعاتبه ابن أخيه فقال: إنك أدخلتني أمس بيتًا أذكرتني به النار، ثم أدخلتني بيتًا أذكرتني به الجنة، فما زال فكري فيهما حتى أصبحت.

****

يا أخي! التوبة التوبةَ قبل أن تصل إليك النَّوبةُ.

الإنابة الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة.

الإفاقة الإفاقة فيا قُرب وقت الفاقة.

إنما الدنيا ليل صيف قريب الفجر.

إذا لم يكـن بينـي وبينـك مُرْسَـلٌ فـريحُ الـصَّبا مِنِّي إليـك رسـولُ

إذا نزل آبُ في القلب سكن آذارُ[1] في العين.

(١) آب: الشهر الثامن من التقويم الميلادي (أغسطس)، وهو من شهور الصيف =

يا من يعظِهُ الدهر ولا يقبل! ويُنذره القهرُ بمن يرحل! ويضمُّ العيب إلى الشيب وبئس ما يفعل، كن كيف شئت فإنما تجازى بما تعمل.

وإمــا تــرى مُهجــةً في الثّــرى   فــلا تغــترر بــالمُنى أنــت هــي

خاصم نفسك عند حاكم عقلك، لا عند قاضي هواك، فحاكمُ العقل يدينُ وقاضي الهوى يجور.

كان أحد السلف إذا قهر نفسه بترك شهوة أقبل يهتزّ اهتزاز الرامي إذا أصاب الهدف.

وركـب سَروا والليـلُ ملـقٍ رُواقَـهُ   عــلى كــل مغــبرِّ الطوالــع قــاتمُ
حدوا عزماتٍ ضاقت الأرض بينها   فـصار سُرا هـم في ظهـور العـزائم
تُــريهم نجــوم الليــل مــا يبتغونــه   على عاتق الشِّعرى وهام النعائمِ
إذا طَرّدُوا في مَعْرِك الجِدِّ قَصَّفُوا   رماح العطايا في صدور المكارم

هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصدُ، وحَلت لهم مرارات البلاء حُبًّا لعواقب السلامة، فيا بشراهم يوم ﴿هَـٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

يا هذا! تنزّه في أخبار المُحبين العابدين إن لم تكن منهم، إن أهل الكوفة يخرجون للتفرج على الحاجّ، اقعد على جنب وادي السَّحر لعلّ إبل

= الحارة، والعامة تقول: آب اللّهابُ. آذار: هو الشهر الثالث من التقويم الميلادي (مارس) ويأتي في نهاية الشتاء، تقول العامة: آذار شهر الزلازل والأمطار، بإذن الله.

القوم تمرّ بك.

واحاجتنا إلى رؤية القوم، ويا شدَّة إيثارهم البعد عنّا، إن رأينا شخصًا فأعلمتنا الفراسة أنه منهم، كانت همته الهرب منّا.

****

يا مخدوعًا قد فُتن! يا مغرورًا قد غُبِن! من لك إذا سُوّي عليك اللّبن؟

أنت في دار شتاتٍ فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيومٍ صمته عن شهواتك
وليكن فطرك عند الله في يوم وفاتك

إخواني! العمر أنفاسٌ تسيرُ بل تطيرُ، الأملُ منامٌ لا تُرى فيه إلا الأحلامُ، هذا سيف الموت قد دنا، هذا الرحيلُ ولا زاد عندنا، انتبهوا من رُقاد الغفلةَ.

أول منازل الآخرة القبرُ، فمن مات فقد حَطَّ رَحْلَ السفر، وسائرُ الورى سائر.

من كان في سجن التّقى فالموت يطلقهُ، ومن كان هائمًا في بوادي الهوى فالموت له حبس يُوثقه.

من كان واثقًا بالسلامة من الجناية فرح بفكّ باب السجن «**والدنيا**

سجن المؤمن»[1].

لما توعّد فرعون السحرة بالصلب أنساهم أملُ لقاء الحبيب مرارة الوعيد ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] يا فرعون! غاية ما تفعل تُحرق الخِيم والركب قد سرى ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

من لاحت له مني نسي تعب المَدْرَج.

متى رُفعت لها بالغور نار ... وقرّ بذي الأراك لها قرارُ
فكلُّ دمٍ أراق السير منها ... بحكم الشوق مطلولٌ جُبارُ[2]

لابد للمحبوب من اختبار المحبّ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥].

أسلم أبو جندل بن سهيل فقيّدَهُ أبوه، فلما نزل رسول الله ﷺ الحديبية خرج أبو جندل يرسُفُ في قيده، فدخل في الصحابة، فقال سهيل: هذا أول من أقاضيك عليه، فاستغاث أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُردُّ إلى المشركين فيفتنوني عن ديني، فقال رسول الله ﷺ: «**وإنا لا نغدر بهم**»[3] فرد إليهم، فقدمُه يسعى إليهم، وقلبه يُجهّزُ جيوش الحيل في الخلاص، فخلّصهُ الله.

لما أسلم مصعب بن عمير حبسه أهله، فأفلت إلى الحبشة، ثم قدم

(١) رواه مسلم.

(٢) مطلول: مهدور، جبار: هدر.

(٣) رواه البخاري.

مكة، فدخل على رسول الله ﷺ، فأرسلت إليه أمه: يا عاقُّ! أتدخل بلدًا أنا فيه ولا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ، فأرادت حبسه، فقال: والله لئن حبستني لأحرصنّ على قتل من يتعرّض لي، فتركتهُ.

وعاذلون لِحَوْبي[1] في محبتّهمْ يا ليتهم وجدوا مثل الذي أجدُ
لما أطالوا عتابي فيك قلت لهم: لا تفرطُوا بعضَ هذا اللوم واقتصدُوا

عذبوا بلالًا فأصرّ على الصبر، فسلموه إلى صبيانهم في حديدة يصهرونه في حرّ مكة، ويضعون على صدره وقت الرمضاء صخرة، ولسان محبته يقول:

بعينيك ما يلقى الفُؤادُ وما لقي وللشوق ما لم يبق منّي وما بقي

قَدِمَ الطفيلُ الدّوسي مكة، فقالت له قريشٌ: لا تدنُ من محمد، فإنا نخافُ أن يفتنك، فسدَّ أُذنيه بقطنتين، ثم تفكّر، فقال: والله ما يخفى علي الحسنُ من القبيح، فانطلق فسمع من رسول الله ﷺ فأسلم.

قطعت قريشٌ لحمَ خبيب، ثم حملوه إلى الجذع ليُصلب، فقالوا: أتُحبُّ أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحبّ أني في أهلي وولدي، وأن محمدًا شِيكَ بشوكة، ثم نادى: وامحمداه![2].

---

(١) الحَوْب: الهم والحزن والوجع. أو أن المراد دعوتهم عليه بقولهم: (لحاك الله).

(٢) انظر قصته في يوم الرجيع، سيرة ابن هشام ٢/ ١٧٢.

لما بُعث معاذُ إلى اليمن خرج الرسول ﷺ يُودّعهُ، ودموع معاذٍ ترشُّ طريق الوداع.

كانت الدنيا بمثلهم عَسَلًا، فتعلقمت بمثلنا، خَلَتِ الديار من الأحباب، فلمّا فرغت رُدِمَ الباب.

وقعتُ فيها أصيلًا كي أسائلُها أعيتْ جوابًا وما بالربع من أحدِ
أضحت قِفارًا وأضحى أهلُها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

****

إن الدنيا مذ أبانت مُحبَّها أبانَتْ حالها، لقد رَوت وما رَوَت[1]، ووارت فأرت مآلها، لقد عرف إدبارها من قد ألف إقبالها، وما اطمأنت أرضُها إلا وزُلزلت زلزالها.

قل لمن فاخر بالدنيا وحامى قَتَلت قبلك سامًا ثُمَّ حاما
ندفِنُ الخِلَّ وما في دفننا بعده شكٌّ ولكن نتعامى
إن قُدَّامك يوما لو به هُدِّدتْ شمس الضحى عادت ظلاما
صاح صِحْ بالقبر يخبرك بما قد حوى واقرأ على القوم السلاما
فالعظيمُ القدر لو شاهدته لم تجد في قبره إلا العظاما

أين مصونُ الحصون؟ أُزعج عنها، أين مقصور القصور؟ أُخرج

(١) أي روت أخبارهم وما أروت ظمأهم.

منها، نَقَلَهُ هادم اللذات نقلًا سريعًا، ومَقَلَهُ في بحار الآفات مقلًا[1] فظيعًا، وفرّق بينه وبين بنيه، وطرقه بطارق النقض فأنقض ما كان يبنيه، هجرهُ والله من هاجر إليه، ونسيهُ نسيبه وقد كان يحنو عليه، حَلُّوا والله بالبلاء في البلى، وودّعهم من أودعهم ثَمَّ[2] ثُمَّ قَلَى، وانفردوا في الأخدود بين وحش الفلا، وسألوا الإقالة فقيل: أما هذا فلا.

لو نطق الموتى بعد دفنهم لندموا غيّهم وأَفْنِهم[3]، ولقالوا: رحلنا عن ظُلْمِ شرورنا إلى ظُلَمِ قبورنا، أفترى محبّنا إذ ظعنّا، بمن اعتاظ عنّا. وهذا مصيرك بعد قليل، فتأهب يا مقيم للتحويل، يا سليمًا[4] يظنُّ أنه سليم، جوارحُك جوارحُك[5]، سور تقواك كثير الثُّلَم، وأعداؤك قد أحاطوا بالبلد.

آه للابس شعار الطرد وما يشعر به، واأسفاه لمضروب ما يحسُّ صوت السوط، عجبًا لمن أصيب بعقله وعقله معه.

يا من كان له قلب طيب، ووقت حسن، فاستحال، ابك على ما فقدت في بيت الأسف.

---

(١) المقل: الغمس.

(٢) ثَمَّ: هناك.

(٣) أفنهم: نقص عقلهم وحمقهم.

(٤) السليم: الملدوغ، تفاؤلًا بالسلامة.

(٥) جوارحك الأولى: الأعضاء، الثانية: التي جرحتك ونقصتك.

لعل انحدار الدمع يعقب راحة　　　من الوجد أو يشفي نجى البلابل

ما أحسن ما كنت فتغيرت، ما أجود جادتك فكيف تعثرت؟

أنجعُ المراهم لجراحات الذنوب الدموعُ، هَتْكَةُ الدمع سترٌ على الذنب.

كان محمد بن المنكدر كثير البكاء، فسئل عن ذلك فال: آية من القرآن أبكتني ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] كيف لا تذهب العيونُ من البكاء، وما تدري ماذا أُعد لها؟!

سبقت السعادة لنبينا محمد ﷺ قبل كونه، ومضت الشقاوة لأبي جهل قبلَ وجوده، وخوفُ العارفين من سوابق الأقدار.

قَلْقلَ الأرواح هيبةُ ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] مع ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] قَوِي قلق العلماء.

* * * *

تيقظ لنفسك يا هذا وانتبه! وأحضر قلبك وميّز ما تشتبه، أما هذا منزلك اليوم، وغدًا لست به؟

أُبْ[1] يا شارد الطبع من سَفَر الهوى، وأذب جامد الدمع بنيران الأسى، لعل شفيع الاعتراف يُسأل في أسير الاقتراف، نقِّ عينيك من

(١) أُب: عد وأنب وتُب.

عيوبك، وخلّص ذَنُوبك[1] من بحر ذُنُوبك، وصُن صندوق فمك بِقُفْل صمتك، واغضض عينك عن عيبك حفظًا لدينك.

اجلس ليلة على مائدة السَّحر، وذُق طعام المناجاة تنسيك كل لذّة، أرواح[2] الأسحار لا يستنشقها مزكومُ غفلة، إنها لتأتي بألطاف الحبيب، ثم تعود فيحاءَ[3] تطلب رسالة، فمن لم يكتب كتابًا فماذا يبعث؟

لو وقفت على جادّة التهجد ليلة لرأيت ركب الأحباب، لو سرت في أعراض القوم لحرك قلبك صوتُ الحُداة، أقبلت رياح الأسحار فاحتشمت[4] تقبيل أقدامهم، وحركت أذيال أثوابهم.

وأمستِ الريحُ كالغيرى تجاذبنا   على الكثيب فضولَ الرِّيط واللِّمَمِ
يشي بنا الطيبُ أحيانًا وآونةً   يُضيئنا البرقُ مجتازًا على إضَم
يُولّع الطلُّ بُرْدينا وقد نسمت   رويحةُ الفجر بين الضال والسَّلم[5]

واعجبًا لرسائل تحمل في الأسحار لا يدري بها الفَلَكُ، ولأجوبةٍ ترد إلى الأسرار ولا يعلمُ بها المَلَكُ.

يا حبذا رند العقيق وبانه   سُقِيَ العقيقُ وأهله وزمانُهُ

---

(١) ذَنوبك: دلوك.
(٢) أرواح: نسائم.
(٣) فيحاء: فائحة الريح والعطر.
(٤) احتشمت: استحت وخجلت.
(٥) يولّع: يجعل فيه لمع البياض، الضال والسلم: نوعان من الشجر.

راقــت خمائلُــه ورق نــسيمه ... وصـفت عـلى حـصبائه غدرانُـهُ
وشـكت تبـاريح الـصبابة وُرْقُـهُ ... وتمايلــت بيــد الــصبا أفنانــه

اجتمع المحبون في مساجد التعبد أول الليل، فرمتهم المحبة في آخره على قوارع الطرق.

أرواح أزعجهـا الحـبُّ، وأقلقهـا الخـوفُ، سـبحان مـن أمـسكها باللطف.

إخـواني تفكـروا في مـصارع الـذين سبقوا، وتـدبروا مـصيرهم أيـن انطلقوا؟ واعلموا أن القوم انقسموا وافترقوا، فمنهم قوم سُعِدُوا، ومنهم قوم شَقُوا.

المـرء مثـلُ هـلال عنـد طلعتـه ... يبـدو ضـئيلًا لطيفًـا ثـم يتَّـسقُ
يـزداد حتـى إذا مـا تـم أعقبـهُ ... كرُّ الجديدين[1] نقصًا ثم يمتحقُ
كـان الـشباب رداءً قد بَهجتُ بـه ... فقــد تطــاير منــه للــبلَى خــرقُ
عجبتُ والـدهرُ لا تفنى عجائبُـهُ ... للـراكنين إلى الـدنيا وقـد صُـدقُوا
يـا أهـل لـذات دارٍ لا بقـاء لهـا ... إن اغــترارًا بظــلٍّ زائــل حمــقٌ

ما قَدَر لِصٌّ قطُّ على فطن، متى نام حارس الفكر انتبه لص الهوى.

من ثبت قلبه في حرب الشهوات لم تتزلزل قدمُه، أول ما ينهزم من المهزوم عقلُه.

---

(١) الجديدان: الليل والنهار.

ما لم يكن لك محرِّك من باطنك فالخلق تضرب في حديد بارد.

ونجمعُ المال نرجو أن يُخلِّدَنا وقد أبى قبلنا تخليد قارون

عجبًا لك! لا الدهر يعظك، ولا الحوادث تنهاك، والساعات تعدّ عليك، والأنفاسُ تُعدُّ منك، وأحب الأمرين إليك أعودُهُما بالضّرر عليك.

كُلُّ ذرة في الكون تخبرُ بلغة بليغة عن حكمة الفاطر، غير أنه لا يفهمُ نطق الجوامد إلا العقلُ.

نظرُ الأبصار اليوم إلى الخالق بواسطة المصنوع تدريجٌ إلى رفع الوسائط غدًا.

يا مؤثرًا ضنك الحس على فضاء العقل! كيف تبيعُ صفاء التأمل بكدر الإهمال؟

تأمل نطفة مغموسة في الرحم، ونقَّاشُ القدرة يشق سمعها وبصرها من غير مِسَاسٍ، كيف تُرَبَّى في حرز مصون، بينما هي ترفل في ثوب نطفة اكتست رواء علقة، ثم اكتست صفة مضغة، ثم انقسمت إلى عظم ولحم، فاستترت من يد الأذى بوقاية جلد، ثم خرجت في سربال الكمال تسحب مطارف الطرائف، فبينا هي في صورة طفل درجت درجةَ الصبي، فتدرجت إلى النطق، وتشبثت بذيل الفهم، هذا بعض وصف الظاهر، فكيف لو فهمت معنى الباطن؟

الآدمي كتاب مسطور، وشخصه رِقٌّ منشور، قلبه بيت معمور، همه سقف مرفوع، علمه بحر مسجور.

****

يا ذا اللب! حدثني عنك، أتنفق العمر الشريف في طلب الفاني الرذيل؟

ويحك! إن لهوى مِرْعَادٌ مبراقٌ بلا مطر، الدنيا لا تساوي نقل أقدامك في طلبها، الدنيا مجازٌ والآخرة وطن.

يا أبناء الدنيا! إنها مذمومة في كل شريعة، والولد عند الفقهاء يتبع الأمّ[1].

ويحكم! إن سرورها أقتل من السم وإن شرورها أكثر من النمل.

كَدُودٌ[2] كَدُودِ القز ينسج دائمًا ويهلك غمًا وسط ما هو ناسجه

يا أظلم من الجُلَندي[3] ما تأمنك غزلان الحرم.

يا مطلقًا نفسه في محظور شهواتها! اذكر الغمس في الرمس.

---

(١) أي في حال الرق والزواج من الأَمَةِ.

(٢) كدود: صيغة مبالغة من الكدّ.

(٣) الجُلندي: أحد ملوك عمان يضرب به المثل في الظلم، وذكر الزمخرشي أنه المعنيّ بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

يا ذا البال الناعم فوق الأرض! اذكر الناعم البالي تحتها.

يا هذا! لو عانيت قصر أجلك لزهدت في طول أملك، وليقتلنك ندمك إن زلّت بك قدمك.

إلى كم ذا التواني في التواني ... وكم هذا التمادي في التمادي

متى ما ازددت من بعد التناهي ... فقد وقع انتقاصي في ازديادي

كم تأكل الدنيا فَرْخَهَا فَعَرَّت؟[1] ثم ذبحته بمديةٍ ما مرت، إنها لتقتل صيادها، وتأكل أولادها.

والله لو كنت في رياشها أكسى من الكعبة، لم تخرج منها إلا أعرى من الحجر الأسود.

قيل لعابد: لم تخليت عن الدنيا؟

فقال: خوفا من الآخرة أن تتخلى عني.

لقد انقضى العمر وأنت في شُغُلٍ ... فاجسر على الأهوال إن كنت رجل!

سار المجدون وتركوك، ونجا المخفون وخلفوك.

يا من أبعدته الخطايا عنهم، ادرُج[2] مرحلة الهوى فقد وصلت، أنت تتعلل للكسل بالقدر، فتقول: لو وفقني، ولكسب الشهوات بالندب إلى

(١) فعرّت: أي ألحقت بهم المعرَّة وهي العار والعيب.

(٢) ادرج: اطو.

الحركة ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] أنت في طلب الدنيا قدريٌّ، وفي طلب الدين جبري، أي مذهب وافق غرضك تمذهبت به! أو ليس في الإجماع ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ [فصلت: ٤٦]؟

لابد والله من قلق وحرقة، إما في زاوية التعبد، أو في هاوية الطرد، إما أن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير، والشوق إلى اللقاء، وإلا فـ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا﴾ [التوبة: ٨١].

شجاك الفراق فما تصنع ... أتصبر للبين أم تجزع

إذا كنت تبكي وهم جيرة ... فماذا تقول إذا ودعوا

القلق القلق يا من سُلِب قلبه، والبكاء البكاء يا من عظم ذنبه.

كان أحد العُباد يقول في مناجاته: ليت شعري ما اسمي عندك يا علّام الغيوب، وما أنت صانعٌ في ذنوبي يا غفار الذنوب، وبم تختمُ عملي يا مقلب القلوب.

وكيف قرّت لأهل العلم أعينهم ... أو استلذوا لذيذ النوم أو هجعوا

والموت ينذرهم جهرًا علانية ... لو كان للقوم أسماعٌ لقد سمعوا

والنار ضاحيةٌ[1] لا بد موردهم ... وليس يدرون من ينجو ومن يقع

والآدمي بهذا الكسب مرتهن ... له رقيب على الأسرار يطلع

(١) الضاحية: البارزة.

حتى يوافيه يوم الجمع منفردًا ... وخصمه الجلد والأبصار والسمع
إذ النبيون والأشهاد قائمةٌ ... والجن والإنس والأملاك قد خشعوا
وطارت الصحف في الأيدي مُنَشَّرَةً ... فيها السرائر والأخبار تطلع
فكيف سهوك والأنباء واقعةٌ ... عما قليل ولا تدري بما يقع؟
أفي الجنان نعيمٌ لا انقطاع له ... أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع؟
طال البكاء فلم يُرحم تضرعهم ... هيهات لا رقة تغني ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سال[1] قومٌ به الرجعى فما رجعوا

يا هذا قد بقي قليل عمرك لا ريب، وهذا الشيب يقلع الأغراس، إن في المقابر لعبرًا وما أدراك ما الأوراس[2]؟ هل تجد لماضي العمر لذةً والباقي على القياس؟

إن المفروح به هو المحزون عليه، غير أن عين الهوى عمياء، طائرُ الطمع يرى الحبة لا الشرك.

يا معشر الفقراء! لا تسألوا سوى مولاكم، فسؤال العبد غير سيده تشنيعٌ عليه، اصبروا على العطش، ولا تشربوا من منّة الخلق، فالحُرة تجوع ولا تأكل بثديها.

كان إبراهيم بن أدهم يعطي عطاء الأغنياء وهو فقير، ويستدين عليه

(١) سال: سأل، وخففت همزتها.
(٢) الأوراس: البالية، ويقصد جثث الموتى في القبور.

ثم يؤثر به.

وهـم يُنفـذون المـالَ في أول الغنـى ... ويـستأنفون الـصبرَ في آخـر الـصبر

مغاوير في الجُلَّى[1] مغاييرُ في الحمى ... مفاريج للغُمّى[2] مداريكُ لِلْوَتَرِ[3]

وتأخــذهم في ســاعة الجــود هــزّةٌ ... كما خايل المطرابُ عن نزوةِ الخمرِ

فتحسبهم فيهـا نـشاوى مـن الغنـى ... وهـم في جلابيب الخَصاصة والفقر

عظـيمٌ علـيهم أن يمنّـوا بـلا يـدٍ ... وهَـيْنٌ علـيهم أن يبيتـوا بـلا وفـر

إذا نــزل الحــيّ الغريــبُ تقــارعوا ... عليـه فلـم يـدرِ المُقـل مـن المثـري

يميلـون في شِـق الوفـاء مـع الـردى ... إذا كـان محبـوب البقـاء مـع الغـدر

* * * *

لا تغرنك السلامة فمع الخواطي سهمٌ صائب.

نظر شاب إلى شيخ ضعيف الحركة فقال: يا شيخ، من قيدك؟ فقال: الذي خَلَّفته يفتل قيدك.

كان بعض الأشياخ يقول: إلهي! من عادة الملوك أنهم إذا كبر لهم مملوك أعتقوه، وقد كبُرْت فأعتقني.

وقف أعجمي عند الكعبة، والناس يدعون وهو ساكت، ثم أخذ

---

(١) الجُلَّى: الأمر العظيم.

(٢) الغُمر: الداهية.

(٣) الوتر: الثأر.

بلحيته فرفعها وقال: يا خداه[1] شيخ كبير.

يا هذا إنما خلقت الدنيا لتجوزها لا لتحوزها، ولتعبرها لا لتعمرها، فاقتل هواك المائل إليها، واقبل نُصحي ولا تعوّل عليها.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله يُوْدَى[2] المالُ والولد

الدنيا مزرعة النوائب ومشرعة[3] المصائب، ومفرقة المجامع، ومجرية المدامع، كم سلبت أقوامًا أقوى ما كانوا، وبانت أحلى ما كانت أحلامًا فبانوا.

يا أقدام الصبر تحملي فقد بقي القليل، تذكري حلاوة الدعة يهن عليك مُر السرى، قد علمت أين المنزل، فاحد لها تَسِر.

الجنة ترضى منك بالزهد، والنار تندفع عنك بترك الذنب، والمحبة لا تقع إلا بالروح.

بلغت بالقوم المحبة إلى استحلاء البلاء، فوجدوا في التغريب عذوبة، لعلمهم أنه مراد الحبيب.

أمر الحجاج بصلب ماهان العابد، فرُفع على الخشبة وهو يسبح ويهلل ويعقد بيديه تسعًا وعشرين فبقي شهرًا بعد موته، ويده على ذلك

(١) يا خداه: يا سيدي بالفارسية.

(٢) يُودَى: يهلك ويفنى.

(٣) مشرعة: مورد الشاربين.

العقد مضمومة.

* * * *

أيها المغتر بالدنيا! كم خدعت؟ ما واصل وصلها محب إلا قطعت، وما ناولت نوالًا إلا ارتجعت، اختبأت مريرها فلما اعتقلت أسيرها جرعت، متى رأيتها قد توطنت فاعلم أنها قد أزمعت.

شيب حلو اللذات منها بمُرٍّ إن حلت مرة أمَرَّتْ مرارًا
في اكتساب الحلال منها حساب واكتساب الحرام يصلي النارا

مالك تجمع مالك ومالك منه إلا ما تخلف، والزمان يستحثك للذهاب وأنت للأذهاب تؤلف؟ المال إذا وصل إلى الكرام عابر سبيل، وإكرام عابر السبيل تجهيزه للرحيل.

أظن هواها تاركي بمضلة من الأرض لا مال لدي ولا أهل
ولا أحد أفضى إليه وصيتي ولا وارث إلا المطية والرحل

من فهم علم التوحيد تجرد للواحد بقطع العلائق، أما ترى كلمتي الشهادة مجردة من نقط.

إذا أعرضت الدنيا أقبلت الآخرة «**من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه**»[1].

---

(١) عند ابن عساكر وأبي نعيم بلفظ: «**من ترك عبد لله أمرًا لا يتركه إلا لله إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه**».

عقر سليمان الخيل ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ [ص: ٣٦] لما عُقدت الخِنصر[١] على التوحيد مُيزت على باقي الأصابع بالخاتم.

يا أطفال التوبة! ما أُنكر حنينكم إلى الرضاع، ولكن ذوقوا مطاعم الرجال، وقد نسيتم شرب اللبن.

اخرجوا لقتل سبع الهوى فقد أغار على سرح[٢] القلوب.

إخواني! جدوا فقد سُبقتم، واستعدوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى علقتم؟ ولا تغفلوا عما له خُلقتم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكتبت الآثام وما أصغيتم، وكأنكم بالصادقين قد وصلوا وانقطعتم.

كلٌّ كنى عن شوقه بلُغاته ولربما أبكى العصيم الأعجمُ

آهٍ على زمان فات وعلى قلب حي مات، كيف الطمع فيما مضى؟ هيهات.

ردوا علي ليالي التي سلفت.

يا من كان له قلب فانقلب، قيام السحر يستوحش بك، صيام النهار يسأل عنك.

يا من كان قريبًا فطُرد، يا عزيزي ما أَلِفْتَ الشقاء فكيف تصبر؟

---

(١) في ابتداء العد والوقوف عليها بغرض التوحيد، والمشهور أن أصبع التوحيد هو السبابة أو السبّاحة وفي الحديث: «وأشار بالتوحيد».

(٢) السرح: السوائم من الماشية.

أصعب الفقر ما كان بعد الغنى، وأوحش الذل ما كان بعد العز، وأشدهما العمى على الكبر.

لا تــبرِ عــودًا أنــت ريّــشته ... حاشـى لبـاني المجـد أن ينقـضا

يا دائرة الشقاء أين أولك؟ يا أرض التيه أين آخرك؟

ســمعت حمامــة هتفــت بليــل ... وقــد حنّــتْ إلى ألــف بعيــد

فأزعجــت القلــوب وأقلقتهــا ... فــما زلنــا نقــول لهــا أعيــدي

أرى مــاءً وبي عطــشٌ شــديد ... ولكــن لا ســبيل إلى الــورود

تعلق بالليل فهو شفيع مُشفَّع، تمسّك بالبكاء فهو رفيق صالح، فأبواب الملوك لا تطرق بالأيدي ولا بالحجارة بل بنفس محتاج.

ولي زفـرات لـو ظهـرنَ قتلنني ... لـشوق لُيَيْلاتي[1] التـي قـد تولّـت

إذا قلت هذي زفرة اليوم قد مضت ... فمـن لي بـأخرى مثـل تيـك أَظَلَّـتِ

حلفـت لهـم بـالله مـا أم واحـدٍ ... إذا ذكرتــه آخــر الليــل حنّــت

وما وجد[2] أعرابية قد فَتَّ[3] بها ... صروف النوى[4] من حيث لم تك ظنت

تمنـت أحاليـبَ الرِّعـاء وخيمـةً ... بنجـدٍ فلـم يقـدر لهـا مـا تمنـت

---

(١) لييلاتي: تصغير ليالي.

(٢) الوجد: المحبة.

(٣) فت: أضعف وأوهن.

(٤) صروف: التقلبات والغير، النوى: البعد والفراق.

إذا ذكرت ماء العذيب[1] وطيبه   وبرد حصاه آخر الليل أنّت
لها أَنَّةٌ وقت العشاء وأَنّةٌ   سُحيرًا فلولا أنّتاها لجُنت
بأكثر مني لوعةً غير أنني   أُجمجم[2] أحشائي على ما أجنت[3]

****

ألا يعتبر المقيم منكم بمن رحل؟ ألا يندم من يعلم عواقب الكسل؟ آهٍ لغافل كلما جد الموت هزل، ولغافلٍ كلما صَعَدَ العمرُ نزلَ.

أَعِدْ على فكرك إتلافَ الأمَمْ   وقفْ على ما في القبور من رممْ
ونادهم: أين القوي منكم   القاهرُ، أم أين الضعيف المهتضم؟
تفاصْلت أوصالهم فوق الثرى   ثم تساوت تحته كل قدم
قبرُ البخيل والكريم واحدٌ   ما نفع البخل وما ضر الكرم
أما كفى الإنسان موت بعضه   وهو المشيب المستطير في اللمم
أيُّ خليلين أقاما أبدًا   ما افترقا؟ وأي حبل ما انصرم؟
إن النجوم الدائرات أبدًا   تضحك من مبتسمٍ إذا ابتسم

إخواني! صدقتم الأمل فكذَّبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم.

إخواني! أبصاركم قوية، وبصائركم ضعيفة، ومن تراءى هواه توارى

---

(١) العُذيب: واد في شمال مدينة الرسول ﷺ.
(٢) أجمجم: أخفي ولا أبدي وأرددها عن البوح والظهور في العلانية.
(٣) أجنت: أخفت.

عنه عقله، سبحان من ظهر لخلقه بخلقه[1] غير أن عالم الحس لا يرونه.

أما قلَّبك من نطفة إلى علقة، وأنت كالجماد، فلما نفخ فيك الروح بعث الزاد ينساق إليك من دم الأم، فتناولته باجتذاب السُرة، إذ لو طرق الحلقوم تلفت، فلما خرجت إلى فلاة الدنيا، رأيت إدوَاتي[2] الثديين معلقتين لشربك، وكانت عُمُورُ[3] الأسنان تكفي في اجتذاب المشروب، فكلما اعتصرته خرج مغربلًا لئلا يقع شرقٌ، فلما قويت المعى وافتقرت إلى غذاء فيه صلابة أنبت الأسنان لتقطع، والأضراس لتطحن

ومن العجائب أنه أخرجت غبيًا[4] لا تعلم شيئًا، فلو أخرجك عاقلًا لرأيت مِنْ أَطَمِّ المصائب تقلبك في الخرق والعصائب، وبثَّ القُوى في باطنك، فقوة تطلب الغذاء، وثانية تطبخه وتهضمه، وثالثة تفرق بين

(١) التأمل والتفكر في النفس والآفاق مما يزيد الإيمان ويرسخ توحيد الربوبية، يقول الدكتور فاضل السامرائي: عرضت لي عوارض شُبهٍ حتى شككت في وجود الله تعالى! وقرأت كتب الناس فلم تزدني إلا حيرة، حتى تأملت في نوع من البعوض إذا أرادت الأم أن تبيض ذهبت إلى مستنقع فغزلت من نفسها مثل غزل العنكبوت قاربًا صغيرًا فتضع فيه بيضها وتطلقه في الماء وتموت مباشرة، فتخرج تلك اليرقات وتبدأ مشوار حياتها فإذا أرادت أن تبيض فعلت كفعل أمها التي لم تلقها ولم ترها، فمن ألهمها وعلمها؟! إنه الله الواحد، فقرأت القرآن الكريم فخرجت منه إلى اليقين بربي سبحانه وتعالى. بتصرف من الطريق إلى الإيمان، د. السامرائي.

(٢) إدواتي: جمع إداوة، إناء صغير يحمل فيه الماء.

(٣) عمور: جمع عمْر وهو لحم اللثة.

(٤) غبيًا، يقال غبي عنه أي جهله ولم يفطن إليه.

صفوه وكدره، ورابعة تتولى قسمته، فلو بُعث إلى الخد ما يبعث إلى الفخذ صار بمقداره، وخامسة تدفع ثفله[1].

أفيحسن بعد تفرقة النعم على العسكر أن يثبوا في المخالفة للمُنْعِم؟

ثم انظر إلى هذا الهواء الذي قد ملأ به الفضاء، كيف تنتصب منه النفسُ إلى النَّفَس؟ ثم هو للأصوات من حيث المعنى كالقرطاس، تُرقمُ فيه الحوائج، ثم ينمحي فيعود نقيًا، فأقوام يرقمون فيه الذكر والتسبيح، وآخرون يرقمون كل قبيح، وكم بين من يرقم تلاوة القرآن، وبين من يرقم أصوات العيدان؟!

ثم تأمل الأرض، كيف قدّها بساطًا، وأمسكها عن الاضطراب لتصحَّ بها السُّكنى، ثم يُزلزلها في وقتٍ ليفطن الساكن للقدرة، وجعل فيها نوع رخاوة لتقبل الحفر والزرع، ورفع جانبا السماء لينحدر الماء[2]، وفرّق المياه بين الجزائر ليرطب الهواء، وأودع المعادن كما تودع الحاجات في الخزائن.

ولما بثّ الطير صان عنها السنبل، لأنها قُوتك بقشور صلبةٍ قائمات كالإبر، لئلا تستفَّهُ فتموت بَشَمًا[3]، فيفوت الحظّان[4].

---

(١) الثفل: ما استقر تحت الشيء من كدره.

(٢) وفي هذا سبق ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ نيوتن في قانون الجاذبية.

(٣) البشم: التخمة.

(٤) حظ الإنسان وحظ الطائر، كذلك حظ الإنسان من الحبوب ومن الطيور.

ثم جاء بالشمس سراجًا ومنضجًا للثمر، تجري لتعمر الأماكن، ثم تغيب ليسكن الحيوان، ولما كانت الحوائج قد تعرض بالليل جعل القمر خَلَفًا، ولم يجعل طلوعه بالليل دائمًا، لئلا تنبسط الناس في أعمالهم كانبساطهم بالنهار، فيؤذي الحريص كَلَالُه[1]، ولما قدَّر غيبة القمر في بعض الليالي جعل أنوار الكواكب كشعل النار في أيدي المقتبسين.

ولما كانت حاجةُ الخلق إلى النار أنشأها، وجعلها كالمخزون، تُستنهض وقت الحاجة، فتُمسَكُ بالمادة قدر مراد المُمْسِك.

ثم انظر إلى الطائر، لما كان يختلسُ قُوْتَهُ خوف اصطياده، صَلُبَ منقارُه، لئلا ينقشر من الالتقاط، لأن زمان الانتهاب لا يحتمل المضغ، وجعل له حوصلةً يجمع فيها الحَبَّ، ثم ينقله إلى القانصة[2] في زمان الأمن، فإن كانت له أفراخٌ أسهمهم من الحاصل في الحوصلة قبل النقل.

فإن لم يكن له حَنَّةٌ على أفراخِهِ أُغْنُوا عنه باستقلالهم من حين انشقاق البيضة كالفراريج.

واعجبًا! كيف يُعصى من هذه نعمه، وكيف لا تموت النفس حُبًا لمن هذه حِكمُه، إن دنت همتك فخف من عقوبته، وإن علت فارغب في معاملته ومحبته، على قدر أهل العزم تأتي العزائم.

---

(١) كلالُه: تعبه.

(٢) القانصة: الكيس الجلدي مما يلي الرقبة للطير، جمعها قوانص.

ليس كل الخيل للسباق، ولا كل الطيور تحمل الكتب، ومن الناس من شُغْله في الدنيا سوداء[1]، ومنهم من لا يلهيه عن الجنة قصر، ولا يسليه عن حبيبه نهر، قوته في الدنيا الذكر، وفي الآخرة النَّظَر.

****

أيها الغافل في إقامته عن نُقْلَته! الجاهل وقد ملأ بما يُملي بطن صحيفته، ألك زادٌ لسفرك على طول مسافته؟

خف الله وانظر في صحيفتك التي ... حوت كلما قَدَّمْتَهُ من فعالكا
فقد خط فيها الكاتبان فأكثروا ... ولم يبق إلا أن يقولا فذالكا
والله ما تدري إذا ما لقيتها ... أتوضع في يمناك أو في شمالكا
فلا تحسبن المرء يبقى مخلدًا ... فما الناس إلا هالك فابك هالكا

يا من تُحصى عليه اللفظة والنظرة! تأهب فما تدري السير عِشاءً أو بُكرة، واعتبر بالقُرناءِ فالعبرة تبعثُ العبرةَ، وتزوّد لسفرةٍ ما مثلها قط سفرة، واقنع باليسير فالحساب غدًا على الذرة.

إخواني! دنا الصباح فقولوا لمن رقد: أين الوجوه الصِّبَاح؟

قال عمر بن عبد العزيز لأبي حازم: عِظني. فقال: اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فجدّ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك فتدعه الآن.

(١) أي جارية سوداء.

الحرب خصام قائم وأنت غلام نائم، يا مخنّث العزم! أين أنت والطريق؟ سبيلٌ نصب فيه آدم، وأطال الصَّبر لأجله نوح، ورُمي في النار إبراهيم الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بدراهم، وذهبت من البكاء عين يعقوب، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح الحصور يحيى، وضَنى بالبلاء أيوب، وبكى داود، وعالج المشقة محمد ﷺ.

فيا دارهم بالحَزْن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

أول قدمٍ في الطريق بذل الروح، هذه الجادة، فأين السالك؟ هذا قميصُ يوسف، فأين يعقوب؟ هذا طور سيناء، فأين موسى؟

****

إخواني! اعتبروا بالذين قَطَنوا وخزنوا، وكيف ظَعنوا وحزنوا، انظر إلى آثارهم تعلمْ أنهم قد غُبنوا، لاحت لهم لذاتُ الدنيا فاغتروا وفُتنوا، فما انقشعت سحابُ المُنى حتى ماتوا ودُفنوا.

جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا وبنوا مساكنهم فما سكنوا
فكأنهم كانوا بها ظُعُنًا لما استراحوا بها ساعة ظعَنُوا

قال شداد بن أوس: لو أن الميت نُشر، فأخبر أهل الدنيا بألم الموت، ما انتفعُوا بعيش ولا التذُّوا بنوم.

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

يا هذا! الشيب أذان، والموت إقامة، ولست على طهارة، والعمر صلاة، والشيب تسليم.

يا من قد خيم حُبَّ الهوى في صحراء قلبه، اقلع الأطناب فقد ضُرب بوق الرحيل، أما تسمع صوت السوط في ظهور الإبل؟ يا سحائب الأجفان أمطري على رِبَاعِ الذنوب، إنما أنت بين داعٍ ووداع، فهل لماضٍ من الزمان ارتجاع.

قفا ودعا نجدًا ومن حل بالحمى ... وقل لنجد عندنا أن تودعا

فليست عُشَيَّاتُ الحمى برواجع ... عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا

تلفَّتُّ نحو الحِمى حتى وجدتني ... وَجِعْتُ من الإصغاء ليتًا وأخدعًا[1]

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تَصَدَّعَا

ويحك! اغسل العثرة بعَبرة، وادفع الحوبة بتوبة، ما دام في الوقت مهلة، وفي زمن السلامة فُسحة، قبل أن تموت وتفوت، وتعلو بعد الخيل على تابوت، قبل أن ترى السمع والبصر قد كَلَّا، وتقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ فيقال: ﴿كَلَّآ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] قبل أن يصير دمع الأسى من جفن أَسَا[2] ويُقال: هلّا كان هذا قبل هذا، هلّا.

---

(١) الليت: صفحة العنق، الأخدع: عرق في الرقبة، إذا قطعه الذابح لا يبقى معه حياة، ويُسمّى الودج، وهما وَدَجان، شريان ووريد.

(٢) أسا: من الإساءة وحذفت الهمزة.

أَتَـتْرُكُ مـن تُحِـبُّ وأنـت جـارُ وتطلبـــه إذا بعـــد المـــزار
وتبكـي بعـد نـأيهمُ اشـتياقاً وتـسأل في المنـازل أيـن سـاروا
تركـت سـؤالهم وهـمُ حـضورٌ وترجـو أن تُخَـبِّرَكَ الـديار
فنفـسك لم ولا تلـم المطايـا ومـت كمـدًا فلـيس لـك اعتـذار

يا من أجله يذوب ذوبان الثلج في الحرّ، أينقشع غيمُ العمر لا عن هلال الهدى؟ أتؤثر الفاني المرذول على النفيس الباقي؟!

ما تـخفى علامات الإدبار عليك، تفتش دارك فلا يُرى سِوَاكٌ للطهارة، يدك لا تُطَهَّرُ للصلاة بل هي ملاعق للأكل، ليس في البيت مصحف بل تقويم[(١)]، أينفعُ وجود التقويم مع عدم التقويم؟

****

ما هذا الحب للدنيا والصَّبَابة؟ وإنما يكفي منها صُبابَة[(٢)]، فقل للنفس الحريصة: قد بعتِ الأخرى رخيصة!

يا من قد أخذ الهوى بأزمته[(٣)] وأمسك الردى بلُمَّته[(٤)]، يا رهين

(١) يسميه بعضهم: الروز نامة، وهي التقاويم التي تحصي الأيام والفُصُول ومواقيت الصلاة ونحوها.
(٢) الصُّبابة: بقية الماء في الإناء.
(٣) أزمته: جمع زمام وهو مِقود الدابة.
(٤) لمَّته: اللّمة الشعر الذي يجاوز الأذنين، فإذا بلغ المنكبين فهي جُمَّة.

ديون تعلقت في ذمته، هذا أوان جِدِّك إن كنت مُجِدًّا، هذا زمان استعدادك إن كنت مستعدًا.

يـا نفـسُ قـد عَـنَّ المـرادُ فخـذي إن كنـت يومًـا تأخـذين أوذري

رُضْ مُهْرَ النفس يتأت ركوبه، تلمّحْ فجر الأجر يَهُنْ ظلام المشقة، احذر حيّة الفم فإنها بتراء[1] إذا خرجتْ من شفةِ غدرك لفظةُ سفهٍ، فلا تُلحقها بمثلها تلقحها، ونسلُ الخصام مذموم، أوثق سَبُعَ غضبك بسلسلة حلمك، فإنه إن أُفلت أتلف، متى قمت بحدّة الغضب انطفأ مصباح الحلم، بحر الهوى إذا ما مَدّ أغرق، وأخوف المنافذ من الغرق فتحة البصر.

والمـــرء مـــا دام ذا عَـــيْنٍ يقلّبهـــا في أعين الغيد موقوف على الخطرِ

يـــسرُّ مقلتـــه مـــا ضرّ مهجتـــه لا مرحبًـا بـسرور عـاد بالـضرر

من أراد من العمّال ان يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يولّيه.

مصابيح القلوب الطاهرة في أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥] وحّد قُسُّ بن ساعدة وما رأى رسول الله ﷺ، وكفر ابنُ أُبيٍّ وقد صلى معه القبلتين!

مع الضّبّ ريّ يكفيه ولا ماء، وكم من عطشان في اللجة!

(١) بتراء: حية شديدة الخطر، تُسقط الحَبل، وتذهب البصر.

سبق العلم بنبوة موسى، وإيمان آسية، فسيق تابوته إلى بيتها، فجاء طفل منفرد عن أم، إلى امرأة خالية من ولد «قرينان مرتعنا واحد».

دخل الرسول ﷺ إلى بيت يهودي يعوده فقال له: **«أسلم»** فنظر المريض إلى أبيه فقال: أجب أبا القاسم، فأسلم[1]. فكان ذلك قريبًا من نسب **«سلمان منا»**[2] فصاحت ألسنة المخالفين: ما لمحمد ولنا؟ والقدر يقول: مريضنا عندكم (كيف انصرافي ولي في داركم شُغُلُ).

لمّا عمّ نور النبوّة آفاق الهدى، رآه سلمان دون العمّ[3] قويت ظلمات الشرك بمكة، فتخبطت قريش في الضلال، فلاح مصباح الفلاح من سُجفِ دار خديجة، فإذا عمر على الباب، ولقد أنارت لإبليس شمس البيان يومَ ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٣٣] غير أن النهار ليلٌ عند الأعشى.

رجع الخفاش إلى عشه، فقال: أوقدوا المصباح فقد جَنّ الليل، فقالوا: الآن طلعت الشمس، فقال: ارحموا من طلوع الشمس عنده ليل، فسبحان من أعطى ومنع، ولا يقال: لِمَ صنع؟

سُلَّمُ التوفيق قريب المراقي، وبئر الخذلان بلا قعر، ربما أدرك الوقفةَ

(١) وتمامه: فخرج النبي ﷺ وهو يقول: **«الحمد لله الذي أنقذه من النار»** رواه البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الطبراني والحاكم بلفظ: **«سلمان منا آل البيت»** وفي سنده مقال.

(٣) أي أبو لهب.

أهلُ مصر، وفات سكان نخلة[1]. لابدّ والله من نفوذ القضاء فاجنح للسلم.

كيف تُتّقى نبال القدر والقلب بين أصبعين؟

كان إبليس كالبلدة العامرة، فوقعت فيها صاعقة الطرد، فهلك أهلُها ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢].

أُخِذَ كِسَاءُ تَرَهُّبِهِ[2] فجعل جلًّا لكلب أهل الكهف، فأخذ المسكين في عداوة آدم، فكم بالغ واجتهد! وأبى الله أن يقع في البئر إلا من حفر، ويحك ما ذنب آدم؟! أنت الجاني على نفسك، ولكنه غيظ الأسير على القِدِّ[3].

صرعَ عمرُ إبليس، فقال بلسان الحال: يا عمر أنا مقتول بلسان الخذلان قبل لقائك «فإياك عني لا يكن بك ما بيا» يا عمر أنت الذي كنت في زمان الخطّاب لا تعرف الباب، وأنا الذي كنت في الملائكة، فوصل منشور ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فعزلني وولاك، فكن على حذر من تحوّل الحال.

---

(١) نخلة: موضع بين مكة والطائف.

(٢) إشارة إلى تعبد إبليس مع الملائكة قبل الطرد، وغالب ما يروى في ذلك من الإسرائيليات.

(٣) القد: السير الذي يُقيد به المحبوس.

فـإن الحـسام الـصقيل الـذي ... قُتلـــتُ بـــه في يـــد القاتـــل

لما تمكنت معرفة عمر بتقليب القلوب، لعب القلقُ بقلبه، خوفًا من قلبه[1] فبادر بطرق باب البريد: يا حذيفة! يا حذيفة![2] المحنة العظمى ارتباط أمرك بمن لا يبالي بهلاكك، فكم قد أهلك قبلك مثلك، كم مشارفٍ بسفينة عمله على شاطئ النجاة ضربها خرقُ الخذلان فغرقت! وما بقي للسلامة إلا باعٌ أو ذراعٌ، أيُّ تصرُّفٍ بقيَ لك في قلبك وهو بين أصبعين؟!

****

بليــتَ ومــا تــبلى ثيــابُ صِــباكا ... كفـاك نـذير الـشيب فيـك كفاكـا

ألــم تــرَ أنَّ الــشيبَ قــد قــامَ ناعيًـا ... مقـامَ الـشباب الغـضّ ثـم نعاكـا

ولم تـــر يومًـــا مـــرّ إلا كأنـــه ... بإهلاكـــه للهـــالكين عناكـــا

ورُبَّ أمــانٍ للفتــى نَـصَبَتْ لــه ... المنيـــة فـــيما بيـــنهن شراكـــا

أراك مــا تنفــكُّ تهــدي جنــازةً ... ويوشـك أن تهـدى كـذاك لـذاكا

ستمـضي ويبقـى مـا تـراه كـما تـرى ... وينـساك مـن خلفتـه هـو ذاكـا

ألا ليت شعري كيف أنت إذا القُوى ... وهَت وإذا الكرب الشديد علاكا

تمـوت كـما مـات الـذين نـسيتهم ... وتُنسى ويهوى الحيُّ بعد هواكا

---

(١) قلبه: انقلابه.

(٢) حينما سأله: يا حذيفة! هل عدني رسول الله ﷺ من المنافقين؟

كـأن خطـوب الـدهر لم تجـر سـاعة　　عليـك إذا الخطـب الجليـل أتاكـا
ترى الأرض كـم فيها رُهونٌ دفينةٌ　　غَلقــنَ فلــم يُقبــل لهــن فكاكــا

يا هذا! العمرُ عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل، وقد آن أن يرحل النزيل.

وا عجبًا لنفاسة نفس رُفعت بسجود الملك لها، كيف نزلت حتى زاحمت كلاب الشَّرَهِ على مزابل الذل، هيهات! لن تفلح الأُسْدُ إذا أُنفقت عليها الميتات.

إن قلتُ: قم قال: رجلي ما تطاوعني　　أو قلتُ: خذ، قال: كَفِّي ماتواتيني

يا هـذا! جسدك كالناقة يحمـلُ راكـب القلـب، فـلا تجعـل القلـب مستخدمًا في علف الراحلة.

يا عمر! كيف كانت حالك؟ قال: كنت مشغولًا بِهُبَل، فسمعت هتاف: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] فعرّجت على المنادي فإذا أنا في الجنة.

يا فضيل! من أنت؟ قال: أُخذت من قطع الطريق[١] فأخذت في قطع الطريق.

---

(١) يشير إلى حاله قبل التوبة حين كان قاطع طريق، أما الثانية فهي حسن السير إلى الله تعالى.

بــــالله يـــا ريــــحَ الـــصَّبَا   مـــرّي عـــلى تلـــك الرُّبـــا
وبلّغــــــــي رســــــــالة   بنـــــصّها أهــــــل قُبـــــا
واحَرَبًــــا وهـــــل يُــــرَدُّ   فائتًــــــــا واحَرَبــــــــــا

سار القوم ورجعت، ورحلوا وانقطعت، وذهبوا وبقيت، فإن لم تلحقهم شقيت.

سلام على تلك المعاهد إنها   شريعة وردِي أو مهبُّ شمالي
ليالِيَ لم نحذر حزون قطيعة   ولم نمش إلا في سهول وصالِ
فقد صرتُ أرضى من سَوَاكِنَ أرْضِها   بِخُلَّب[1] برقٍ أو بطيف خيالِ

يا من كلما استقام عثر، يا من كلما تقرّب أبعد، أستسلم مع التوبة، واستروح إلى البكاء.

وصلوا إلى عرفات يبغون الرضا   وبقيتُ منقطعًا ببطن الوادي

يا هذا! من اجتهد وجَدَّ وَجَد، ليس من سهر كمن رقد، والفضائل تحتاج إلى وثبة أسد.

خـــاطِرْ فإمـــا عيـــشةٌ حـــرّةٌ   يُرغـــدها العِـــزّ وإمـــا الحِـــمام
زاحم على باب العلي واجتهد   لابد أن تدخل بين الزحام
من طلب الغاية خَطْوًا على   ظهر الهوينى رام صعب المرام

(١) البرق الخلّب: المطمعُ المُخلف، وهو السحاب يومض برقه حتى يرجى مطره، ثم ينقشع بدون مطر، وكأنه من الخِلابة: وهي الخداع، وفي الحديث: «لا خِلابة».

يا مغرورًا بخضراء الدِّمَن! يا جامعًا مانعًا قل لي لِمَنْ؟ كيف ينال الفضائل مستريح البدن؟ سِلَعُ المعالي غاليات الثمن، وإن ساومتها فبزهد أويسٍ وفقه الحسن.

يا هذا! أَوْقِدْ مصباح الفكر في بيت العلم تَلُحْ لك الأعلام، من سد ثغور الهوى بجند الجِدّ ملأ عين راحته من نوم الطمأنينة، من دقّ صراط وَرَعِه عن الشبهات، عَرُض الصراط له يوم الجَوَاز. لله در أقوام تأملوا الوجود ففهموا المقصود، فالناس في رقادهم وهم في جمع زادهم، والخلائق في غرورهم، وعيونهم إلى قبورهم.

قال الإمام أحمد: لقد رأيت قومًا صالحين، رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جُبَّةٌ من لُبود[1] قد أتت عليها سنون، رأيت أبا داود الحفري وعليه جبّة مخرّقة قد خرج منها القطن وهو يصلي فيترنح من الجوع، ورأيت أيوب النجار وقد خرج من كل ما يملكه وكان في المسجد شاب مصفّر يقال له: العوني، يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي.

إذا ما الخيام البيض لاحت لدى مِنًى فعــرِّجْ فإنّـا بعـدها بقليـل

قال أبو عمران الجوني: أرتني أمي موضعًا من الدار قد انحفر، فقالت: هذا موضع دموع أبيك.

وكان حسان بن أبي سنان يحضر مجلس مالك بن دينار، فيبكي حتى

(١) لُبود: جمع لِبْد وهو كساء من شعر أو صوف.

يبلّ ما بين يديه، ولا يسمع له صوت.

أجاب دمعي وما الداعي سوى طللٍ دعـاه فلبّـاه قبـل الركـب والإبـلِ
ظللـت بـين أُصـيحابي أُكفكفـه فظـلَّ يسفح بـين العُـذر والعَـذلِ
ومـا صَـبابةُ مـشتاق عـلى أمـلٍ مـن اللقـاء كمـشتاق بـلا أمـلِ

يا كثيف الطبع! أفميتٌ أنت وهذه الصواعق حولك؟!

خليليَّ قد عمَّ الأسى وتقاسمت فنـون البلَى عُـشاق ليلي ودورَهـا
وكنت إذا ما جئت ليلي تبرقعتْ فقـد رابنـي منهـا الغـداة سفورُها

احذر أن تكون أعمالُك أعمى لك، وأفعالُك كالأفعى لك.

* * * *

لو كان لك باعثٌ من نفسك ما احتجت إلى محرك من خارج، هذا الديك يصيح في أوقات معلومة من الليل لا تختلف وإن لم يكن في القرية ديك غيرهُ، وأنت تؤخر وظائف صلواتك، وتنقص من واجبات عباداتك، فإن بكيت في المجلس فلبكاء الجماعة، فإذا خلوت خلوت من محرك.

هيهات! من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ، إذا لم تكن للدجاجة همّة للحضن لم تنفع تغطيتها بمنخل الحاضن، تُصابِرُ الشقاء لما تأملُ من العواقب، والرعناءُ تكسر البيضَ قصدًا.

الخصائص أوضاع، والسوابق خواص **«هؤلاء في الجنة ولا أبالي،**

وهؤلاء في النار ولا أبالي»[1]، المغناطيسُ يجذب الحديد بخاصيةٍ فيه، لمّا شُقَّ ختام نافجة[2] النبوة ملأ ريحها الأرض، فاستنشقها أهل العافية، فوصل إلى خياشيم سلمان في فارس، وصهيبٍ في الروم، وبلال في الحبشة، وكان ابن أُبيّ مزكومًا فما نفعه قرب الدار.

كم من نَفْسٍ دخلت مجلس الذكر، وهي حاملٌ بجنين الإصرار، فلما استنشقت ريحَ المواعظ أسقطت.

يا صبيان التوبة! ارفقوا بمطايا أبدانكم فقد ألفت الترف ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

هَبَّ لها من النسيم رائدُ ... فعادها من الغرام عائدُ
نوق نفى عنها الحمى طيب الكرى ... فهي كما شاء السرى سواهدُ[3]
أنحلها تحت الدؤوب أينُها ... فمارت الأنساعُ[4] والقلائد
فلا تخالفها إذا ما التفتت ... شوقًا إلى بان الحمى يا قائد
وقل لها لعا[5] إذا ما عثرت ... فهي لحمل وجدها تكابد

---

(١) رواه أحمد.

(٢) النافجة: وعاء المسك في جسم الظبي.

(٣) سواهد: جمع ساهدة: قلقة أرقة.

(٤) الأنساع: جمع نِسع، وهو سير عريض طويل تشد به الحقائب ونحوها، ومارت: تحركت وتدافعت.

(٥) لعا: من لعًّ، وهي كلمة تقال للعاثر مرة أو مرتين، ومعناها: أقالك الله من عثرتك.

مـذ حكـم البـين عليهـا لم تـزل تبكـي عليهـا البيـد والفدافـد[1]

يـا صـبيان التوبـة! للـنفس حـظ وعليهـا حـق ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]، خـذوا مـا لهـا واسـتوفوا مـا عليهـا ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥] فإن رأيتم منها فتورًا فاضربوها بسوط الهجر ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤] عـلى أني أوصي صـبيان التوبة بالرفق، وبعيدٌ أن يقرَّ خائفٌ أو يسمع العذل محبٌ.

يـا صـديقي عنـدي اليـوم شـغل فالْـهُ عَنِّـي واشـتغلْ يـا صـديقي
بيـد إن تـذْكُر لي حـب قلبـي فأعـدْ ذكـرهم لنـا يـا رفيقـي

****

إخـواني! البـدار البـدار، فـما دار الـدنيا بـدار، إنـما هـي حلَبـةٌ لجريـان الأعمار.

مـا دار دنيـا للمقـيم بـدار وبهـا النفـوس فريـسة الأقـدارِ
مـا بـين ليـلٍ عـاكف ونهـارِه نفـسان مرتـشفان للأعـمارِ
طـول الحيـاة إذا مـضى كقـصيرها واليـسر للإنـسان كالإعـسارِ
وتعاقـب الملَـوَين[2] فينـا نـاثرٌ بـالكرِّ مـا نَظَـما مـن الأعـمارِ

---

(١) الفدافد: جمع فدفد وهي الصراء الواسعة.

(٢) الملوين: الليل والنهار.

تالله ما صح من يطلبه مرضه، ولا استقام غصنٌ يلويه كاسرُه، ولا طاب عيشٌ الموتُ آخره، إن الطمع لعذاب، وحديث الأمل كذاب، وفي طريق الهوى عقاب[1]، وآخر المعاصي عقاب، فلا يخدعنّك ضياء ضباب، ولا يُطمعنك سرابُ شراب، فمجيء الدنيا على الحقيقة ذهاب، وعمارةُ الفاني إن فهمت خراب، وكلما نادى الأملُ ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] صاح الأجلُ ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

يا تائهًا في ظلمةِ ظُلْمه، يا موغلًا في مفازة تيهه، يا باحثًا عن مُدْيةِ حتفه، يا حافرًا زُبية[2] هُلكه، يا معمقًا مَهْوَاة مصرعه، بئس ما اخترت لأحبّ الأنفس إليك.

ويحك! تطلب الجادة ولست على الطريق، كم فغر الزمان بوعظة فمًا فما سمعت ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموتَ ساعةً، ولا يتمُّ له سرور يوم؟

إذا كان عمرك في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى! لقد نُصبت لك أشراك الهلاك، والأنفاس أدقُّ الحبائل.

الأولياء في حَرَمِ التقوى ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

(١) عقاب: جمع عَقبة، مرقى صعب في الجبال.

(٢) الزُبية: حفرة يحفرونها للأسد ليصيدوه.

الدنيا مثل منام والعيش فيها كالأحلام.

قيل لنوح عليه السلام: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدارٍ ذات بابين، دخلت من باب وخرجت من باب.

فلما تفرقنا كأني ومالكًا　　　لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

يا ثقيل النوم أما تنبهكُ المزعجات؟ الجنة فوقك تزخرف، والنار تحتك توقد، والقبر إلى جانبك يُحفر، وربما يكون الكفن قد غُزل، أيقظان أنت اليوم أم أنت نائمُ؟!

يا حاضرًا يرى التائبين وهو في عداد الغائبين، واقفٌ في الماء عطشان، ولكن ليس يُسقى، عاتب نفسك على هواها فقد وَهاها[1] قل لها: ادرجي درج المدرج وقد لاحت مِنًى، تلمّح عواقب الهوى يهنْ عليك الترك، تفكر في حال يوسف لو كان زلّ من كان يكون؟ هل كانت إلا لذة لحظة وحسرة الأبد؟! عَبَرَت والله أجمال[2] الصبر سليمة من مكس[3] وبقيت مديحةُ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

يا هذا! احسب صبر يومك ساعة نومك، تحظ في غداة برغدك، البدار إلى الشهوات والندامةُ فَرَسا رهان، والتواني عن التوبة والخيبةُ

(١) وهاها: أضعفها.

(٢) أجمال: جمع قلّة لجمل.

(٣) المكس: ما يأخذ العشّار ضريبة ممن يدخل البلد من التجار (الجمرك).

رضيعا لَبان[1]، واعجبًا! غرتك حبة فخّ فحصلت وما حَوْصَلْت[2]، اليومُ واطربًا للكأس، وغدًا واحربًا للإفلاس، آهٍ من حلاوة لُقَمٍ أورثت مرارة نِقَم.

تأمل العاقبة لا يحصل إلا لِنَاقِدٍ يصير، من تلمح إذا تلا ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] وعرف قدر مدح ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ علم أنه لم يُبْق في فيه شيئًا من مرارة البلى مرارة ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾.

ألقي في النار فعرض له جبريل عليه السلام، وهو يهوي في الهواء، فأراد أن ينظر هل للهوى فيه أثر؟ فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فأقبل بمنشور ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧].

قالت لطيف خيالٍ زارها ومضى: بالله صِفهُ ولا تُنقص ولا تزدِ
فقال: خلَّفتُهُ لو مات من ظمأ وقلت: قفْ عن ورود الماء لم يردِ
قالت صدقت، الوفا في الحبّ عادته يا بردَ ذاك الذي قالت على كبدي

* * * *

يا غاديًا في غفلة ورائحًا إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى: كم لا تخاف موقفًا يستنطق اللهُ به الجوارحا

(١) اللَّبان: اللبن.

(٢) حوصل: ملأ بطنه، فحصلت: الحصل هو سفّ الفرس التراب من البقل فيجتمع منه تراب في بطنه فيقتله، وهو من أدواء الخيل.

يـا عجبًـا منـك وأنـت مبـصرٌ كيـف تجنبـت الطريـق الواضـحا
كيـف تكـون حـين تقـرا في غـدٍ صـحيفة قـد حـوت الفـضائحا
وكيـف تـرضى أن تكـون خـاسرًا يــوم يفــوز مــن يكــون رابحــا

يا معدومًا في الأمس، فانيًا في الغد، عاجزًا في الحال! من أنت حتى تغتر بسلامتك؟ وتنسى حتفك؟ وأملُك بين يديك، وأجلُك خلفك، وكتابك قد حوى تفريطك.

أيها القاعد عن أعالي المعالي، سبق الأبطال والبطّالُ ما يبالي.

فـإلا تمـت تحـت الـسيوف مكرمـا تمُـتْ وتقـاسي الـذل غـير مكـرم
فَثِبْ واثقًـا بـالله وثبـة مـاجٍ يـرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

ويحك! إنما يكون الجهاد بين الأمثال، ولذلك مُنع من قتل النساء والصبيان، فأي قدر للدنيا حتى يحتاج قلبُك إلى محاربة لها؟

لو علمت أن لذة قهر الهوى أطيب من نيله لما غلبك.

من ذبح حنجرة الطمع بخنجر اليأس أعتق القلب من أسر الرق.

من تدرع بدرع الصدق على بدن الصبر هزم عسكر الباطل.

من قطع فضول الكلام بشفرة الصمت وجد عذوبة الراحة في القلب.

من ركب مركب الخوف مرّت به رخاء الهدى إلى أرجاء النجاة.

ألا عزيمة عمرية، ألا هجرة سلمانية.

الجدَّ الجدَّ فالطريق طويلة، دار الناقة بذكر الدار، عَلِّلْهَا بصوت الحُداة، فإذا لاح لها المنزل فشوقُها يسوقها.

إخواني! انبعاث الجوارح في العمل دليل على قوة العلم بالأجر، فإذا حصل تسليم النفوس في الجهاد إلى القتل كان النهاية في كمال اليقين، فإذا وقع الفرح بأسباب التلف دل على كمال المحبة، كما قال عبد الله بن جحش: «اللّهم سلط علي غدًا عدوًا يبقر بطني ويجدع أنفي، فإذا لقيتُك قلت: هذا فيك ومن أجلك».

وطُعن حرام بن ملحان فنفذ فيه الرمح فقال: «فزت ورب الكعبة».

لما انزعجت الطبائع تذكروا قبيح الجناية، فمدوا أيدي التسليم للودائع، فخضبت الدماء محاسن وجوه طالما صبرت على برد الماء وقت الإسباغ، وحصدت مناجل السيوف زروع رؤوس طالما أطرقت في الأسحار، وعادت خيولهم خلية عنهم، فوطئتهم بعد السنا تحت السنابك، واقتسم لحومهم عُقَبانُ السماء وسباع الأرض، فكم من رِجْل رَجُلٍ طالما قامت فصلّت فُصِلَتْ، وكم من يدٍ بالدعاء رُفعت وَقَعَتْ، وكم من بطنٍ حمل بالصيام ما شَقَّ شُقَّ، وكم من عينٍ كانت تعينُ الحزين بالفيض وقعت في منقار طائر!

هذا حديث الأجسام، فأما الأرواح ففي دار السلام، والله ما كانت إلا

غفوةٌ حتى أعطاهم العفو عفوًا، وكأنكم بأجسادهم التي تفرقت قد تلقّفت، وبالقبور التي جمعتهم قد تشققت، وقد قاموا بلسان الحال ينادون: عن ربنا حاربنا ولأجله قُتلنا، وكُلُومهم يومئذ قد انفجرت فجرت، اللون لون الدم والريحُ ريح المسك، فليعلم الأشهاد حينئذ أنهم الشهداء.

خَلِّ طرفي والبُكا إن كنت خِلِّي فالحمى أقفرَ من جارٍ وأهلِ
ما وقوفي في محلٍّ ساكنٍ في فؤادي أهلُهُ لا في المحَلِّ
سل بقلبي عن خيامٍ في اللِّوى تاه قلبي في حماها ضلّ عقلي

* * * *

عجبًا لراحل عن قليل، غافل عن زاد الرحيل، لا يعتبر بأخذ الجيل، وإنما هو تأخير وتعجيل.

إن الليالِيَ لا تبقى على حالِ والناس ما بين آمال وآجالِ
كيف السرور بإقبالٍ وآخرُهُ إذا تأملته مقلوبُ إقبالِ(١)

كأنكم بالمسير عن الربع قد أزف، وبالكثير من الدمع قد نزف، وبالمقيم قد أُبين مما أَلِف، وبالكريم قد أُهين لمّا تلف.

يا طالب الدنيا دنا فراقُها تزويجها أسرع أم طلاقها
ودينُ من يخطبها صَداقها

(١) مقلوب إقبال: إدبار.

إذا اعتكر الليل اعترك الهمُّ، طال الدُّجى على الأبدان، وقصُرَ على القلوب.

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا

لو رأيت رواحل الأبدان قد أنضاها طول السهر وأضناها، فلما هبّت نجدية السحر مدت أعناق الشوق فزال كلُّ كلال.

كَلِفْنَ بنجد كأن الرياض أخذنَ لنجد عليها يمينا
وأقسمن يحملن إلا نحيلا إليه ويُبْلغنَ إلا حزينا
ولما استمعن زفيرَ المشوق ونوحَ الحمام تركنَ الحنينا
إذا جئتما بانة الواديين فأرخو النسوع وحلّوا الوضينا(١)
فثَمَّ علائق من أجلها مُلاءُ الدجى والضحى قد طَوَيْنَا
وقد أنبأتْهم مياهُ الجفون بأن بقلبك داء دفينا

دموع الخائفين يحبسها بالنهار مراقبة الخلق، فإذا جَنَّ الليل زال حاجز الدموع ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

أرواح الأسحار أقوات الأرواح، رقّت فرَقَت.

يا غافل القلب! ما هذا الكلام لك، ليس على الخراب خراجٌ، لا يعرفُ البَرَّ إلا سائح، ولا البحر إلا سابحٌ، ولا الزناد إلا قادحٌ.

(١) النسوع: حبل يشد به الرحل، الوضين: بطان عريض منسوج يكون للهودج.

إخواني! تفكروا في ذنب أبيكم ونزوله بالزلل، ويكفيك رَمْزٌ إلى آدم بأنك عبد في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] لأن العبد ليس له إلا ما سدّ الجوعة وستر العورة، فجاء إبليسُ يطمعه في المُلْكِ، فلمّا خَرج إلى الطمع خَرجَ.

نام في الجنة فانتبه، وقد خُلقت له حواء، فقال: ما هذا؟ قيل: من يريد النوم يُخلق له ضجيج، كفى بالشوق مُسهرًا، فلما وقع في الزلل طار النوم.

متى شُقَّ جيبُ الجُنح بالبارق الوَمْضِ   وهبّت قبولٌ فالسلام على الغمضِ

بالأمس جبريل يسجد له، واليوم يُخرج ولسان حاله يستغيث:

حُدَاة العيس رفقًا بالأسير   ليغنم نظرةً قبل المسير
ويا بان الحمى هل فيك ظلٌ   فعند حشاي مزدحمُ الزفير
ويا ريح الشمال إليك سُؤلي   أجيبي: هل مررت على الغدير؟
وهل سحبت على شيح ورنْدٍ   ذيولك يا مبللة الضمير؟

كانت الجنة إقطاعنا، فحُلَّ بالإقطاع بجناية لقمةٍ، فلما غسل آدمُ جَنَابَةَ الجِناية رُدَّ الإقطاع عليه، لو لا لطف ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ [البقرة: ٣٧] لقتله الأسف.

يا من جرى عليه ما جرى على أبيه، اسلك طريقه من التوبة.

اكتب قصة الندم بمداد الدموع، وابعثها مع ريح الزفرات، لعل الجواب يصلُ برفع الألم.

كيف لا أبكي على عيش مضى بعت عمري بحقير الثمن

انتبه لنفسك يا من كلما تحرّك تعرقل، فيك جوهرية السباق ولكن تحتاج إلى رائض، قلبك محبوس في سجن طبعك، مقيّد بقيود جهلك، فإذا ترنم حادٍ تنفسَ مشتاق إلى الوطن، فالبس لأمةَ عزمك، وسِرْ بجند جِدك، لعلك تُخلّصُ هذا المسلم من أيدي الفراعنة.

لك الحديث يا مُعرض، أنت المراد يا غافل، يا مُستلذًا برد العيش تذكر حرقة الفرقة، يا من يُسلمهُ موكلان إلى موكلين، ما لانبساطك وجه، إنما تُملي عليها رسالة إلى ربك، وما أراك تملُّ قُبْح ما تُمْلِي.

كانوا يتراسلون بالمواعظ لتقع المساعدة على اليقظة، كصياح الحارس بالحارس: يا نيامُ السَّحُور.

يا نسيم الصبا ترنم على الدوح بصوت يشجي وإن طار لُبِّي

من معيدُ أيامنا بِلِوَى الجزع وهيهات أين مِنّي صحبي

****

أين اللاهون بالمزاح زاحوا؟ أين شاربوا الراح راحوا؟ وبكَ يا صاح صاحوا، لقد ندبوا في قبورهم على الوَنَى[1] وناحوا.

يا أيها الواقف بالقبور بين أناس غيب حضور

---

(١) الونى: التكاسل والتباطؤ.

قـد سـكنوا في حـديث معمـور   بـين الثـرى وجنـدل الـصخور
ينتظـرون صـيحة النـشور   فـلا تَـكُ عـن حظـك في غـرور

أيـن أربـاب المناصـب؟ أبـادهم المـوت المُنَاصِـب، أيـن المتجـبر الغاصب؟ أذله عذابٌ واصب[1]، لُفَّت والله الأكفانُ كالعصائب على تلك العصائب[2]، وحلّت بهم آفات المصائب إذ حل بِلُبَّاتهم[3] سهم صائب، فيا من يأمن هذه النوائب، أحاضرٌ أنت أم غائب؟!

كم عاصٍ بات في ذنوبه، يتقلبُ على فراش عيوبه، بين مزمار ومِزْهرٍ، ومسكر ومنكر، فجاءه الموت فُجَاءَة فأنساه ولده ونساءَه، وجلب من مساوئه ما ساءه، فنُقل إلى اللحد ذميمًا، ولقي من غِبِّ المعاصي أمرًا عظيمًا.

كـم سـالم صـبَّحَهُ موتُـهُ   وقائـلٍ عهـدي بـه البارحـة
أمـسى وأمـست عنـده قينـةٌ   فأصـبحت تندبُـهُ نائحـة
مـن كانـت الـدنيا لـه بَـرَّةً   فإنهـا يومًـا لـه ذابحـة

واعجبًا لمن رأى هلاك جنسه، ولم يتأهب لنفسه.

قال البازيُّ للديك: ليس على الأرض أقل وفاءً منك، أخذك أهلُك

(١) الواصب: المتتابع المستمر.

(٢) العصائب الأولى: جمع عصابة وهي العمامة، والثانية هي الجماعة من الناس.

(٣) لبّاتهم: جمع لُبّة وهي موضع النحر من الصدر.

بيضةً فحضنون وربّوك، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت وصحت! وأنا أُخذت وحشيًا من الجبال فعلّمُوني ثم أرسلوني فجئت بصيدي.

فقال له الديك: إنك لم تر بازيًّا مشويًا في سَفُّود، وكم رأيت في سَفُّودٍ من ديك؟

إخواني! الزهد في الدنيا زُبْدُ مَخْضِ مَحْضِ الفكر، حظ الحريص على الدنيا في الحضيض، والقنوع في أعلى الذّرى.

يا موغلًا في طلب الدنيا! الحسابُ حبسٌ، فإن صحّ لك الجوابُ تعوّقت بمقدار التصحيح، وإن لم يصحّ فمطمورة[1] جهنم.

ويحك! طالع دستور عملك تَرَ كُلَّ فِعلك عليك، من وقف على صراط التقوى وبيده ميزان المحاسبة، ومحكُّ الورع، يستعرض أعمال النفس، ويردُ البَهْرَج[2] إلى كير التوبة، سلم من رد المناقد يوم التقبيض.

ويحك! سلطان الشباب قد تولّى، وأمير الضعف قد تولّى، ومِعْوَلُ الكِبَر يعرقل حيطان دار الأجل، وحسبك داءً أن تصحَّ وتسقما.

كان ثابت البُناني يستوحشُ لفقد التعبد بعد موته، فيقول: «يارب إن كنت أذنت لأحدٍ أن يصلي في قبره فأذن لي».

---

(١) المطمورة: حفرة يطمر ويلقى فيها الطعام وغيره.

(٢) البهرج: المزيف المغشوش.

وكان يزيد الرَّقاشي يقول في بكائه: يا يزيدُ من يبكي بعدك عنك؟ من يترضّى ربك لك؟

لمّا علم المحبون أن الموت يقطع التعبُّدات كرهوه لتدوم العبادة.

كانوا يحبون أماكن الذكر ومواطن الخلوة، والمؤمن أَلُوفٌ للمعاهد.

****

العُزلة حميةُ البدن، والمناجاة قوت القلب، ومن أنس بمولاه استوحش مِنْ سواه.

يا منتهى عبادتي وأُنسي ... كُن لي إن لم أكن لنفسي

أَطْمَعَنِي في غدٍ نجاتي ... حلمُكَ عن سيئات أمسي

خُلق القلب طاهرًا في الأصل، فلما خالطته شهوات الحس تكدّر، وفي العزلة يرسب الكدر.

الحيوان المميّزُ على ثلاثة أقسام:

فالملائكة خُلقت من صفاء لا كَدَر فيه.

والشياطين من كدر لا صفار فيه.

والبشريُّ مركبٌ من الضدّين.

فالعجب أن تقوى عند التقوى.

تقديس الملائكة يدور على ألسنةٍ لا تشتاق بالطبع إلى الفضول، سُبَحُ

تسبيحهم عقودٌ ما نظمتها كلف التكليف، ثمراتُ زروعهم نشأت لا عن تعب، سقاها سيحُ العصمة، فكثر في زكوات تعبدهم قدر الواجب ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥] كانت أقدامُ تعبدهم سليمة، فاستبطؤوا سير زمنَى[1] الهوى، فقيل: إذا رأيتم أهل البلاء، فسلوا الله العافية.

واعجبًا! من منحدرٍ في سفنِ التعبد يستبطئ مصاعدًا في الجبال. إن للحرب رجالًا خُلقوا.

ألهم أنين المذنبين، أو خُلوف الصائمين، أو حُرقة المحبين؟!

لما عَبَّ[2] بحر الأمانة يوم ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] توقفت الملائكة على الساحل، ونهضت عزيمة الآدمي لسلوك الخطر، بل لأقدام المحب إقدام.

يغلبني شوقي فأطوي السُّرى ... ولم يزلْ ذو الشوق مغلوبًا

لا نحتاج أن نناظر الملائكة بالأنبياء[3] بل نقول: هاتوا لنا مثل عمر،

---

(١) زمنى: جمع زَمِن، وهو المشلول المُقعد.

(٢) عبّ البحر: ارتفع موجه.

(٣) مسألة التفضيل بين الملائكة والبشر هي من مُلَح العلم لا من متينه، وقد اختلف فيها أهل العلم ولهم فيها تفصيلات وتفريعات، فللملائكة سابقة العلم والعبادة، وللبشر فضيلة القيام بالأمر بمخالفة الهوى والشيطان، وقد كُفينا البحث في ذلك، والأولى الاشتغال بما يعنينا.

كلُّ الصحابة هاجروا سرًّا، وعمرُ هاجر جهارًا، وقال للمشركين قبل خروجه: ها أنا ذا، على عزم الهجرة، فمن أراد أن يلقاني فليلقني في بطن هذا الوادي، فليت رجالًا فيك قد نذروا دمي.

مُذْ عزم عمر على طلاق الهوى، أَحَدَّ أهله عن زينة الدنيا.

وعَزْمــةٍ بَعَثَتْهَــا همّــةُ زُحَــلْ   من تحتها بمكان التراب مَنْ زَحَلْ

لمّا ولي عمر بن عبد العزيز خيَّرَ النساء، فقال: من شاءت فلتُقِم، ومن شاءت فلتذهب، فإنه قد جاء أمر شغلني عنكن.

للعزائم رجال ليسوا في ثيابنا، وَطَّنُوا على الموت، فحصلت الحياة.

إذا ما جررتُ الرمحَ لم يثنني أبٌ   مُلِــحٌّ ولا أمٌّ تــصيحُ ورائــي
وشــيّعني قلــبٌ إذا مــا أمرتُــهُ   أطــاع بعــزمٍ لا يــروغ ورائــي

يا خِزانة الودائع! يا وعاء البدائع! يا من غُذي بلبان البر، وقُلِّب بأيدي الأيادي(١)، يا زرعًا تهمي عليه سُحُب الألطاف، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة، وصُوَرٌ وأنت المعنى، وصدَفٌ وأنت الدُّرُّ.

ويحك! لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصي، أبعد الله إبليس لأنه لم يسجد لك، فالعجب كيف صالحته وابتعدت عن الله؟!

يا جوهرةً بمضيعةٍ، يا لُقطة تُداس، كم في السماوات من ملك يسبح

(١) الأيادي: النعم.

ما لهم مرتبة ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ [السجدة: ١٦] لا يعرفون طَعْمَ طعام، وما لهم مقام «**ولخلوف**»[١] أنين المذنبين أوفى من تسبيحهم، سبحان من اختارك، على الكُلّ، وجادل عنك الملائكة قبل وجودك ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ ﴾ [البقرة: ٣٠] خلق سبعة أبحر واستقرض منك دمعة، له ملك السماوات والأرض واستقرض منك حبة.

لو كان في قلبك محبة، لبان أثرها في جسدك، «**عجب ربُّنا من رجل ثار على وطائه ولحافه إلى صلاته**»[٢]، تلمح معنى (ثار)، ولم يقل (قام)، لأن القيام قد يقع بفتور، فأما الثوران فلا يكون إلا بالإسراع حذرًا من فائت.

إذا هزنا الشوق اضطربنا لهزّه ... على شُعَب الرَّحْل اضطراب الأراقمِ
فمن صَبَوَاتٍ تستقيم بمائلٍ ... ومن أريحياتٍ تهبُّ بنائمِ

إخواني! من نافرته المحبة، نافره النوم.

قال سفيان الثوري: بتُّ عند الحجاج بن الفرافصة إحدى عشرة ليلة، فما أكل وما شرب ولا نام.

❊ ❊ ❊ ❊

يا طويل الأمل في قصير الأجل، يا كثير الزلل في قليل العمل، خلا

---

(١) من حديث الصيام: «**ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» متفق عليه.

(٢) رواه أحمد.

لك الزمان وما سددت الخلل، أفما عندك وجلٌ من هجوم الأجل؟!

تجهز إلى الأجداث ويحك والرَّمس جَهازًا من التقوى لأطول من حبس
فإنك ما تدري إذا كنت مصبحًا بأحسن ما ترجو لعلك لا تُمسي

يا معاشر الأصحاء! اغتنموا نعمتي السلامة والإمهال، واحذروا خديعتي المنى والآمال، قد جرّبتم النفس وتبذيرها في بضاعة العمر، فانتبهوا لانتهاب الباقي ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

الدنيا حُلم، والموت يقظة، والحساب تفسير الأضغاث.

يا شاربين من منهل الهوى شرب الهيم[١]، يا جاعلين نهار الهدى كالليل البهيم، يا مقيمين على الدّنس وليس فيهم مقيم، أتعمرون ربوع النِّعَم برُتوع النَّعَم؟ وتستبدلون بالقرآن محرّمات النَّغَم، وقد توطّنتم ناسين تُرُوح[٢] النزوح، فلم تذكروا الممات حتى تروحَ الروحُ، تالله ليعودن المستوطنُ في أهله غريبًا، والمغتبط بفرحه مغيظًا كئيبًا ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

يا ثقيل النوم، يا بطيء اليقظة، أما ينبّهك الأذان؟

وإذا تكامل للفتى من عمره خمسون وهو إلى التقى لا يجنحُ

---

(١) الهيم: الإبل المهيومة التي تصاب بداء العطش فلا تروى مهما شربت.

(٢) تروح: جمع ترح وهو الألم.

عكفت عليه المخزيات فما له ... متأخر عنها ولا متزحزحُ
وإذا رأى الشيطان غرَّة وجهه ... حَيَّى وقال: فديت من لا يفلحُ

إخواني! فتشوا أعمال الأعمال قبل الرحيل ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] يا مطلقي النواظر في محرم المنظور ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] لا يغرنّكم إمهال العصاة ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥] يا من عَاهَدَ رَبَّهُ من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لا تحلَّنَّ عقد العهد بأنامل الزلل، فما يليق بشرف قدرك خيانة.

ألا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابه ... وأرواحُه إن كان نجدٌ على العهدِ
ألا ليت شعري عن عُوَيْرِضَتي قبا ... بطول الليالي هل تغيرتا بعدي
وعن علوِيَّات الرياح إذا جرتْ ... بريح الخُزامى هل تهبُّ على نجد

المعرفة غرس في القلب، والتذكار ماء، ومتى جفّت المياه عن الغروس جفّت، شجراتُ ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢] تُسقى من مياه **«هل من سائل»**[1].

العقل ما ينسى إنما الحس مغفل، سبب النسيان أمراضٌ من التخليط.

****

(١) من حديث النزول الإلهي، رواه أحمد ومسلم.

أيها القائم على سُوق الشهوات في سُوقِ الشُّبهات[1] ناسيًا سَوْقَ المُلمَّات إلى ساقي الممات، إلى كم من الخطأ بالخطوات إلى الخطيئات، كم عاينت حيًّا فارق حيًّا، وكفًّا كُفّتَ بالكِفات[2].

مـا أقـل اعتبارنـا بالزّمـان	وأشـدَّ اغترارنـا بالأمـاني
وقفـاتٌ عـلى غـرور وأقـدامٌ	عـلى مزلـق مـن الحـدثانِ
وكفانـا مُـذكّرًا بالمنايـا	عِلْمُنـا أننـا مـن الحيـوان

لا يغرنّك صفو العيش فالرسوب في أسفل الكأس، من لم يسمع كلام الصامت، ولم يسمع عبارة الجامد[3] فليس بفطن.

قال أحمد بن أبي الحواري: رأيت شابًا قد انحدر عن مقبرة، فقلت: من أين؟ فقال: من هذه القافلة النازلة. قلت: وإلى أين؟ قال: أتزوّد لألحقها. قلت: فأي شيء قلتَ وقالوا؟ قال: قلتُ: متى ترحلون؟ فقالوا: حتى تقدُمُون.

وكـم مـن عـبرةٍ أصـبحت فيهـا	يلـينُ لهـا الحديـدُ وأنـت قـاسِ
إلى كـم والمعـادُ إلى قريـبٍ	تُـذَكَّرُ بالمعـاد وأنـت نـاسِ

(١) سوق الأولى: جمع ساق، والثانية: مكان البيع والشراء.

(٢) كفّت: وقعت، الكِفات: الموضع الذي يُكْفَتُ فيه، أي يضم، وهو إشارة إلى القبر.

(٣) الصامت: الذهب والفضة، الجامد: الحد الفاصل بين الأرضين أو الدارين، إشارة إلى القبر وعالم البرزخ لأنه الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة.

يا صبيان التوبة! قد عرفتم شرور أعطان الهوى، فرحلتم طالبين ريف التقى، فحثوا مطايا الجد ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] كلما شَرُف المطلوب طالت طريقه.

إنما خُلقت الداران لأجلك، أما الدنيا فلتتزود، وأما الأخرى فلتتوطّن، أفتُراك تعرف مكانة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] أو قيمة ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، يا هذا! ينبغي أن تكون همتك على قدرك، ولك قدر عظيم لو عرفته.

إذا صعدت الملائكة عن مجلس الذكر، قال الحق: «**أين كنتم، فيقولون: عند عبادٍ لك يسبحونك ويمجدونك، فيقول: ما الذي طلبوا ومما استعاذوا...**»(١).

يا من كان في رفقة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦] فصار اليوم في حزب أهل النوم.

يا هذا! لا تجزع من ذنب جرى، فرُبَّ زلّةٍ أورثت تقويمًا، «**لو لم تذنبوا...**»(٢).

من لم يذق مرارة الفراق لم يدر ما حلاوة التلاقي

(١) متفق على أصله.

(٢) رواه أحمد.

ما لم يقع سهم في مقتل فالعلاج سهل، انحناء القوس ركوع لا اعوجاجٌ، كانت محبةُ آدم للحبيب أصلية، وتعبد إبليس تكلُّفًا، والعِرْق نزّاع ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] وإنما يُعالجُ الرَّمِدُ لا الأكمه(١).

تأملوا خِسة همّة إبليس إذ رضي بعد القرب من السدة بالتقاط السمع ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨] إنه ليهجم على ساحة الصدر فيأخذُ في حديث الوسوسة فيصيح به حُرَّاس الإيمان من شرفات قصر الذكر فيرجع بلقب الخنّاس.

* * * *

فضائل بني آدم خفيت على الملائكة ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ [البقرة: ٣٣] فكيف يعرفها إبليس؟!

صعد منا إلى السماء إدريس وعيسى، وجال في مجالهم محمد ﷺ، ونزل منهم هاروت وماروت، وتديَّر عندنا إبليس، لو علم المتديرُ ما قد خُبئ له من البلايا ما سأل الإنظار؟

كُلَّما غلب صاحبَ معصيةٍ، وجلس ينقُضُ في تقواه، صدرتْ عن التائب نُشَّابةُ ندم، فوقعت في صدر إبليس.

أعظم ما على إبليس مجالس الذكر، ما يُعقد مجلس إلا ويقلق لما يرى

(١) الأكمه: من وُلد أعمى.

من النفع.

ما علم أن الجنة إقطاعنا، وإنما أُخرجنا عنها مسافرين، كُتُبُ ديارنا تصل إلينا، ورسائلنا تصل إليهم، ويا قرب اللقاء إن رحمنا الله.

كان فتحُ بن شخرف يقول: قد طال شوقي إليك، فعجّل قدومي عليك.

تُمدُّ بالآذان والمناخرِ لحاجر أنَّى لها بحاجر[1]

أرضٌ بها السائغ من ربيعها وشوقها المكنون في الضمائر

سارت يمينًا والغرامُ شامةٌ يا سِرْبها يا ابن الحُداةِ يَاسِرْ بِهَا

* * * *

فخذ للسيد أُهبَتَهُ وبادر وجَوِّد جَمْعَ رحْلِكَ للذّهاب

فقد جد الرحيل وأنت ممَّن يسيرُ على مقدّمة الركاب

يا مغمورًا بالنعم معدوم الشكر، كلما لطف الله بك قابلته بالمخالفة! إنه لا عجب، مِنْ تَرْكِ الشكر إنفاقُ النعم في مخالفة المنعم، هو العجب!

أيها الضالُّ في بادية الهوى، احذر من بئرٍ بوار، وليس في كل وقت، تَتَّفِقُ سيارة.

آن الرحيل وما في مزادتك قطرة ماء، ولا في مزود عملك قبضة زاد،

(١) حاجر: ما يمسك الماء من شفة الوادي، وهو منزل من منازل الحاج في البادية.

وقد أحلت ناقتك على ما تلقى من العشب، والجدبُ عامٌ في العام، ويحك! عش ولا تغتر، ليت شعري إلى ماذا يؤول الأمر؟

آهٍ من تأوّهٍ حينئذٍ لا ينفع، ومن عيون صارت كالعيون مما تدمع.

نُقْلَةٌ إلى غير مسكن، وسفر من غير تزوّد، وقدومٌ إلى بلدِ ربحٍ بلا بضاعة.

يا لساعة الموتِ ما أشدّها، تتمنُى أن لو لم تكن عندها، وأعظم المحن ما يكون بعدها.

ولم أنس موقفنا للوداع وقد حانَ مما أحبُّ الرحيلُ
ولم تبق لي دمعة في الشؤونِ[1] إلا غدتْ فوق خدّي تسيلُ
فقال نصيحٌ من القوم لي وقد كاد يأتي عليَّ الغليلُ
تأنَّ بدمعك لا تُفنِهِ فبين يديك بكاء طويلُ

تقسَّم الصالحون عند الموت، فمنهم من صابر هجير الخوف، حتى قضى نحبه كَعُمَر، كان يقول عند الرحيل: الويل لعمر إن لم يُغفر له.

ومنهم من أقلقه عطش الحذر فيبرده بماء الرجاء كبلال، كانت زوجته تقول: واحَرَباه، وهويهتف: واطرباه، غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه. عَلمَ بلالٌ أن الإمام لا ينسى المؤذن، فمزج كرب الموت براحة الرجاء في اللقاء.

(١) الشؤون: جمع شأن وهو مجرى الدمع في العين.

بشَّرَها دليلها وقال: غدًا ترين الطلح والجبالا

قال سليمان التيمي لابنه عند الموت: اقرأ علي أحاديث الرُّخص، لألقى الله وأنا حسن الظن به.

إلى متى تُتعب الرواحل؟ لابد من مناخ.

رفقًا بها يا أيها الزاجرُ قد لاح سَلْعٌ ودنا جاجِرُ
فخلِّها تخلعُ أرسانها على الرُّبى لا راعها ذاعرُ
واذكر أحاديث ليالي مِنًى لا عُدِمَ المذكور والذاكرُ

****

يا من أيامُ عمره في الحياة معدودة، وجسمه بعد مماته مع دودة!

رأيتُك في النقصان مُذ أنت في المهد تُقرِّبُك الساعات من ساعة اللحدِ
ستضحك سِنٌّ بعد عينٍ تعصَّرتْ عليك، وإن قالت: بكيتُ من الوجدِ
أتطمحُ أن يَشْجَى لفقدك فاقدٌ لعلّ سرور الفاقدين مع الفقد

مركب الحياة تجري في بحر البدن برُخاء الأنفاس، ولابد من عاصف قاصف تفككه وتغرق الركَّاب.

حكمُ المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
جُبلتْ على كدرٍ وأنت تريدها صفوًا من الأقذاء والأكدار
فاقضوا مآربكم عجالًا إنما أعماركم سفرٌ من الأسفار

أعجبُ خلائق الخلائق؛ محسنٌ في ليل شبابه، فلما لاح الفجر فَجَر.

بادر بالتوبة من هفواتك قبل فواتك، فالمنايا بالنفوس فواتك.

يا هذا! عقلك يحثك على التوبة وهواك يمنع، والحرب بينهما، فلو جهزت جيش العزم فرّ العدو، تنوي قيام الليل فتنام، تسمع الموعظة فلا تبكي، ثم تقول: ما السبب؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] عصيت النهار فنمت بالليل، أكلت الحرام فأظلم القلب، فلما فُتِحَ بابُ الوصول للمقبولين طُردت.

ويحك! فِكْرُ القلب في المباحات يحدث له ظلمة، فكيف في تدبير الحرام؟

كان مسروق يصلي حتى تتورم قدماه، فتقعد امرأته تبكي مما تراه يصنعُ بنفسه.

يا هذا! أول الطريق سهل، ثم يأتي الحَزَنُ(١).

في البداءة إنفاقُ البدن، وفي التوسط إنفاقُ النفس، فإذا نزل ضيف المحبة تناول القلبَ فأملق المنفق.

* * * *

(١) الحزن: ما غلظ من الأرض.

إخواني قد كفَتِ الكِفاتُ[1] في العبر، وَوَعَظَ من عَبَر من غَبَرَ[2]، وقد فهم الفَطِنُ الأمر وَخَبَرَ، وما عند الغافل من هذا خبر.

يا أيها الناس أين أولُكم   أما أتاكم للذاهبين خبرْ
اعتبروا فالمُقَدَّمُون خلوا   وكلهم للمؤخَّرين عِبَرْ
كادت شخوصٌ في الأرض باليةٌ   تنطق حقًّا إذا المقالُ غَدَرْ
بالأمس كُنَّا من الأنام فأمّا   اليومَ في تربنا فنحنُ مَدَرْ

ابك على نفسك قبل أن يُبكى عليك، وتفكّر في سهم قد صوّب إليك، وإذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وإذا عاينت قبرًا فتوهّمه قبرك، وعُدَّ باقي الحياة ربحًا.

لقد لامني عند القبور على البُكا   رفيقي لتذرافِ الدموع السوافكِ
فقال: أتبكي كل قبر رأيتَهُ   لقبرٍ ثوى بين اللّوى والدكادك
فقلت له: إن الشجا يبعثُ الشَّجا   فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوع الذنب على القلب كوقوع الدهن على الثوب، إن لم تُعجِّل غسله وإلا انبسط ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢].

اليوم عهدكم فأين الموعد   هيهات ليس ليوم عهدكم غد

(١) الكفات: الموضع الذي يُضم فيه الشيء ويقبض، ومنه قولهم للمنازل: كفات الأحياء، وللقبور: كفات الأموات.

(٢) عَبَرَ: مَرَّ، غَبَرَ: بَقِيَ.

ما دامت نفسُك عند التوبيخ تنكسر، وعينُك وقت العتاب تدمع، ففي قلبك بَعْدُ حياةٌ.

أيها التائبون بألسنتهم، ولا يدرون ما تحت نطقهم، لا يُحكمُ بإقراركم ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

التوبة الصادقة تقلع آثار الذنوب، ما ضُرب بسيف العزيمة قَطُّ إلا قَطَّ(١).

يا معاشر التائبين من أقامكم وأقعدنا، من قرّبكم وأبعدنا؟ ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

* * * *

يا من زمانه الذي يمضي عليه: عليه، يا طويل الأمل وهو يرى الموتى بعينيه، يا من ذنبه أوجبَ أن لا يُلتفتَ إليه، قد مُزِجت لك كأس كُرْبة، ولا بُدَّ والله من تلك الشربة، يا منقولًا بعد الأنس إلى دار غربة، يا طين تُربةٍ وهو يَطْلُبُ في الدنيا رُتبة، أما يُستدل على نار العقاب بدخانه؟

كان الحسن شديد الحزن، طويل البكاء، سُئل عن حاله فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي.

يا من سيّب قلبه في مراعي الهوى، وألقى حبله على الغارب، ستعلمُ

(١) قط الأولى: ظرف لما مضى من الزمان، الثانية: انقطع.

من يطول نشدانه للضُلّال.

أكثر فساد القلب من تخليط العين، ما دام باب العين موثقًا بالغضّ فالقلب سليم من آفة، فإذا فُتح الباب طار طائره وربما لم يعد.

رأى بارقًا من نحو نجد فراعه ... فبات يسيحُ الدمع وجدًا على نجدِ

هل الأعصرُ اللاتي مضيْن يعُدن لي ... كما كُنَّ لي، أم لا سبيل إلى الردّ

يا متصرفين في إطلاق الأبصار، جاء توقيع العزل ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام.

إذا لاحت للتائب نظرةٌ لا تَحِلّ، فامتدت عينُ الهوى، فزُلزلت أرض التقى، ونهض معمارُ الإيمان ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

****

إخواني! تفكروا في الذين رحلوا، أين نزلوا؟ وتذكروا أن القوم نُوقِشوا وسُئلوا، واعلموا أنكم كما تُعذَلون عُذِلوا، ولقد ردُّوا بعد الفوات لو قُبلوا.

سألت الدار تُخبرني ... عن الأحباب ما فعلوا

فقالت لي: أناخ القوم ... أيامًا وقد رحلوا

فقلـــت: فـــأين أطلـــبهم؟	وأي منـــــازل نزلـــــوا؟
فقالـــت: بـــالقبور وقـــد	لقـــوا والله مـــا عملـــوا؟
أنـــاسٌ غـــرّهم أمـــلٌ	فبـــادرهم بـــه الأجـــلُ
وأُثْبِـــتَ في صـــحائفهم	قبـــيح الفعـــل والزلـــلُ
فـــلا يـــستعتبون ولا	لهـــم ملجـــا ولا حِيَـــلُ
نـــدامى في قبـــورهم	ومـــا يُغنـــي وقـــد حَـــصَلوا

ذهبت أعماركم في طِلاب الشهوة، والموت قد دنا، فما هذه السهوة، والقلوب غافلة، فإلام القسوة؟

يا من يروحُ ويغدو في طلب الأرباح، ويحك اربح نفسك.

من رأى بعين فِكْره معاولَ النقض في هدم المنزل ناح على السكان؟

الفُرص تمر من السحاب، والتّواني من أخلاق الخوالف.

من استوطأ مركبَ العجز عثرَ به.

تزوّج التواني البطالة فوُلد بينهما الخسران.

كان عمر وعائشة يسردان الصوم، وختم أبو بكر بن عياش في زاوية بيته ثمانية عشر ألف ختمة، وكان عمير بن هانئ يسبّح كل يوم مئة ألف تسبيحة، وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضرّ ويصفرّ، وكان ابن أدهم كأنه سفّود من العبادة، وكانت رابعة كأنها شنٌّ بالٍ، ومات حسان بن أبي سنان فكان على المغسل كالخيط، وكان محمد بن النضر لو

كُشط جميع لحمه لم يبلغ رطلًا.

جـزى الله المـسير إليـك خـيرًا وإن تـــرك المطايـــا كـــالمزاد

* * * *

يا من أيامه تَعِظُه حِيْنَ تبنيه وتنقضه، يا من صحته تُمرضه، وسلامته تُحْرِضُه[1]، يقرُضُ عمره فيفنيه ومن يقرضه.

الدهر خطيبٌ كافٍ، والفكر طبيب شافٍ.

كم قُطع زرعٌ قبل التمام، فما ظنُّ المُسْتَحْصَد[2]؟

يا مقدمين على الحرام! أنتم بعين من حرّم.

ينبغي لمن أُلبس ثوب العافية أن لا يُدنسه بوسخ الزلل.

كُلُّ صاف من الدنيا مقرون بكدر، حتى أنه في الغيث عيث[3]، أتريد أن لا ينعكس لك غرض؟ فما هذا موضعه، الهِباتُ ذاهبات، والليل مناهباتٌ، الدنيا قنطرة، واستيطان القناطر بَلَهٌ.

هـــل نَجْــدُ إلا منـــزلٌ مفـــارَقٌ ووطــنٌ في غــيره يُقــضى الــوطرْ

الهـمُّ فيها أكثر من الفرح، والسرور أقلّ من الحزن ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ

(١) تحرضه: تهلكه.

(٢) المُسْتَحْصَدُ: الذي حان وقت حصاده.

(٣) عيث: فساد.

ﭐلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ويحك! إن الإنسان يشدُّ في إصبعه خيطًا يتذكر به حاجته، وهل في جسدك عِرْقٌ أو شعرة إلا وهي تذكّر بالخالق؟ فما وجه هذا النسيان البارد؟!

لا بد في سلوك الطريق من مصابرة رفيقٍ، البلاء له خُلُقٌ صعب، فاصبر على مداراته، البلايا ضيوف فأحسن قِراها، لترحل عنك إلى بلد الجزاء مادحة لا قادحة، من حَكَّ بأظفار شكواه جِلْدَ عيشه أدْمَى دينَه، البلاء ظلمة غبش، ويا سرعة طلوع الفجر.

* * * *

يا من غلبتهُ نفسه، وبطشَ بعقله حسُّه، استدرك صُبابَةَ اليقظة، وصِحْ في سمع قلبك بموعظة:

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا	واعصي الهوى فالهوى ما زال فتّانا
أما ترين المنايا كيف تلقطُنا	قسرًا وَتُلْحِقُ أُخرانا بأولانا
في كل يوم لنا مَيْتٌ نشيّعُهُ	نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس ما لي وللأموال أتركُها	خلفي وأخرجُ من دنياي عُريانا
ما بالنا نتعامى عن مصائرنا	ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
نزداد حرصًا وهذا الدهرُ يزجُرنا	كأن زاجرنا بالحرص أغرانا
يا راكضًا في ميادين الهوى مرِحًا	ورافلًا في ثياب الغيّ نشوانا

مضى الزمان وولّى العمرُ في لعبٍ يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا

يا هذا! وَجّه ناقتك إلى بادية الزيارة، فإن لها بنسيم نجدٍ معرفة، قِفْها على الجادّة، وقد هب لها نسيم الشيح من الحجاز، إن أعوزك في الطريق ماءٌ فتمِّمْ مزادتك بالبكاء.

سهر العيون لغير وجهك ضائعُ وبكاؤهنّ لغيرك ربي باطلُ

إذا خلا الفكر باليقين ثارت عجاجة الدمع.

****

يا هذا! عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها، حدّثها بما بين يديها وأخبرها، أَشِرْ عليها بمصلحتها ودبّرْها.

استعدِّي للموت يا نفسُ واسعي لنجاةٍ فالحازمُ المستعدُّ

يا هذا! أُخْلُ بنفسك في بيت الفِكر، واعذلها في الهوى، فإن لم تَلِنْ فاخرج بها إلى عسكر المقابر، فإن لم ترعوِ فاضربها بسوط الجوع.

يا هذا! العُزلةُ تجمعُ الهمَّ، والمخالطة نهّابة، الهوى مرضٌ كثير التخليط، فهذا قَلْبُكَ الطفلُ كثير المرض، عجّل بفطامه وقد صحّ.

العزلة والقناعة والصبر والعفة والتواضع عقاقير النجاة، يبلغن بمستعملهنَّ مرتبة الغِنى، والحرص والشرهُ والغضب والعُجب والكبر كلُّهم مجانين في مارستان العقل، وهو القيّمُ عليهم، فلتحذر الغفلةَ عنهم،

فإنه إن أفلت مجنون حلَّ الباقين.

يا هذا! حِصْنُ السلامة العزلة، أقلّ ما في الخروج منه من الأذى مصادمةُ الهواء المختلِفِ المهابِّ في بادية الشهوات، وقد أعقبتْهُ جَنُوب المجانبةِ للصواب فصار وباءً، وإياك أن تتعرض للهواء الوبيء مغترًا بصحة مزاجك، فإنك إن سلمت من فضول الفتن لم تأمن من زُكْمَةٍ، ومتى تمكّنَتْ زُكْمةُ الهمّة لم تشمّ الفضائل.

لمّا انقشع غيمُ الغفلة عن عيون أهل اليقين، لاح لهم هلالُ الهُدى في صحراء اليقظة، فبيّتوا نيّة الصوم عن الهوى.

دخل محمد بن كعب القُرَظي على عمر بن عبد العزيز وقد غَيَّرَهُ الزهدُ فأنكره، فقال: يا ابن كعب! فكيف لو رأيتني بعد ثلاثة أيام في قبري؟!

تكاد تنكرهم عين الخبير بهم ... لولا تردُّدُ أنفاسٍ وأرواحِ

إخواني! من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

وكم ناحلٍ بين تلك الخيام ... تحسبُه بعضَ أطنابها

قيل لأبي بكر النهشلي وهو في الموت ـ وكان صائمًا ـ: اشرب قليلًا من الماء، فقال: حتى تغرب الشمس.

واشوقاه إلى تلك الأشباح، سلام الله على تلك الأرواح.

يا هذا! إن أردت لحاق السادة فخلّ مُخَالَلَةَ الوسادة، واجعل جِلْدَتك بُردتك، أكحِلْ عينيك بالسهر والدمع، وضع على قروح الجوع مرهم الصبر، وسُحْ في بوادي التُّقى، فإن وصلت إلى دوائك تناولته من يدِ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وإن مُتّ بدائك فمقابر الشهداء ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥].

* * * *

يا مشغولًا بتلفيق ماله عن تحقيق أعماله، من خَطَرَ ذِكْرُ الرحيل ببالِه، قَنَع بالبُلَغِ ولم يبالِهِ.

لابد والله من العبور إلى منزل القبور، تسفي عليك الصَّبَا والدَّبور.

ويحك! إن الدنيا تغرّ، ولابد لك منها، فخذ قدر الحاجة على حذر، أما ترى الطائر كيف يختلِس قوته؟

أما عرفت أدب الشرع في تناول المطعم، ثلثٌ طعامٌ، وثلثٌ شرابٌ، وثلثٌ نَفَسٌ.

طريق المتقين تفتقر إلى رواحل، وإبل عزائمكم كُلُّها كالٌّ، إنما يصلحُ للمَلكِ قلبٌ فارغٌ ممن سواه.

وقلبُكَ خانٌ كلَّ يومٍ وليلةٍ ... يفارقه ركبٌ وينزله ركبُ

في كل يوم ترهنُ قلبك على ثمن شهوة، فيستعمله المرتهنُ، فقد

أخَلَقَ[1]. أنت توقد نار التوبة في مجلس الموعظة في الحلْفاء[2] فإذا أردت منها قبسًا بعد خروجك لم تَجِدْ، تبكي ساعة الحضور على الخيانة والمسروق في جيبك.

يا مظهرًا من الخير ما ليس فيه! لا تبع ما ليس عندك، كم نهاك عن نظرة وتعلم أنّه بالحضرة، أفلا تُراقب الناظرَ بردّ الناظرِ؟ وكأنك لا تعرف أن الحاضرَ حاضرٌ.

واعجبًا لك! تَعُدُّ التسبيحَ بمسبحة، فهلّا جعلت لعدّ المعاصي أخرى؟ يا من يختار الظلام على الضوء! الذباب أعلى همَّةٍ منك، متى أظلم البيت خرج الذباب إلى الضوء، أما ترى الطفل في القماط[3] يُناغي المصباح؟

يا هذا! إن كنت محبًّا، فحبيبك معك في كلّ حال، حتى عند الموت، وفي بطن اللحد.

اللّهم أجرِ القلوب من جور النفوس، يا سلطان القلب، نشكو إليك النازلة.

* * * *

(١) أخلق: بلي.

(٢) نبات في الماء.

(٣) لفافة الطفل الرضيع، المهاد.

إخواني! احذروا الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت، ذانك يفرقان بين المرء وزوجه، وهذه تفرق بين العبد وربّه، وكيف لا؟ وهي التي سحرت سَحَرةَ بابل، إن أقبلت شغلت، وأن أدبرت قتلت.

نظرت فأقصدتِ الفؤاد بسهمها ثــم انثنــت عنــه فكــاد يهــيمُ
ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وَقْــعُ الــسهام ونــزعُهُن ألــيمُ

إنها إن صَفتْ حلالًا كدّرت الدين، فكيف إذا أُخذت من حرام؟ إنَّ لحم الذبيحة ثقيلٌ على المِعاء، فكيف إذا كانت ميتة؟!

الظَّلَمَةُ في الظُّلْمة يمشون في جمع الحطام، يصبحون ويمسون على فراش الآثام ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

من نبت جسمه على الحرام، فمكاسبه كبريتٌ به يوقد، أتراهم نسوا طيَّ الليالي سالف الجبّارين، وما بلغوا معشار ما آتيناهم؟ فما هذا الاغترار ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ﴾ [الرعد: ٦]؟ فهم ينتظرون من لهم إذا طلبوا العود ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] كم بكت في تَنَعُّمِ الظالم عينُ أرملة، واحترقت كبد يتيم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨].

ما ابيض لون الرغيف حتى اسود وجه الضعيف، ما عَبَل[1] جسم الظالم حتى ذوت دوابٌّ ذات قوّة.

(١) عبل: امتلأ.

لا تحتقر دعاء مظلوم، فشررُ قلبه محمولٌ بعجيج صوته إلى سقف بيتك، نِبَالُهُ مصيبٌ، ونبلُهُ غريب، ومرماه هدف **«لأنصرنك»**[1]. وقد رأيتُ وفي الأيام تجريب.

كم من دارٍ دارت بِنَعِمِ النِّعم، دارت عليها دوائر النقم ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

كان عمر يخاف مع العدلِ، يا من يأمن مع العدول.

أحسن شعائر الشرائع العدلُ، الظلمُ ظلمةٌ في نهار الولاية، وجدبٌ يرعى لحوم الرعيّة، والعدل صَوْتٌ في صُوْرِ الحياة، يُبعث به موتى الجور.

أيها الظالم! تذكر عند جورك عدل الحاكم، تفكّر حين تصرفك في سَرَفك.

عجبًا لك! تدّعي الظَّرَف[2] وتأخذُ المظروفَ والظّرْفَ، كلّا، ستعلمُ أيها الغريمُ قدر غُرمك إذا التقى كلُّ ذي دَيْنٍ وماطِله.

يا أرباب الدول! لا تعربدوا في سُكْرِ القدرة، فصاحب الشُّرطة بالمرصاد.

وأنت أيها المظلوم! تذكّر من أين أُتيت؟ فإنك لا تلقى كَدَرًا إلا من

---

(١) من حديث «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام، يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين» رواه أحمد والترمذي.

(٢) الظرف: الكياسة.

طريق جناية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

كان لبّانٌ[١] يخلط اللبن بالماء، فجاء سيل فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلًا، ولسانُ الجزاء يناديه «يداكَ أوكتا وفوكَ نفخ»[٢].

اذكر غفلتك عن الآمر والأمر وقت الكسب، ولا تنسَ اطّراح التقوى عند معاملة الخلق، فإذا انقضّ غاصبٌ فلا تستطرف ذلك، فأنت الجاني أولًا والبادي أظلم.

* * * *

يا من عمره يذوب ولا يتوب، إذا خرقت ثوب دينك بالزلل فارقعه بالاستغفار، فإن رفّاء[٣] الندم صَناعٌ[٤] في جمع المتمزّق.

يا هذا! إنما يضلُّ المسافرُ في سفره يومًا أو يومين، ثم يقعُ على الجادة، واعجبًا من تيه خمسين سنة!

لو صَفَتْ لك فكرةٌ، كان لك في كل شيء عبرة، كل المخلوقات بين مخوفٍ ومشوقٍ، حر الصيف يذكر حرّ جهنم، وبردُ الشتاء محذّر من

---

(١) لبّان: صاحب اللبن.

(٢) مثل يضرب لمن يجني على نفسه بالهلاك.

(٣) رفّاء: خياط.

(٤) صَنَاع: ماهر.

زمهريرها، والخريف ينبّه على جني ثمار الأعمار، والربيع يحثّ على طلب العيش الصافي.

إذا استحرّ الحر تَقَحَّمَ القملُ، فطلّق القطرُ الأرض، فلبست سربال الجدب، وَأَحَدَّتْ في حِفش[1] الذل، فلما طالت أيام الأيمة أومأ إلى المراجعة الرجع، فبكت قطراته لطول الهجر، فضحك لكثرة بكائه روضُ الأرض، فبنى البنّاءُ ريع[2] الربيع، فنهضت ماشطة القدرة، لإخراج بنات النبات من مَخْدَر الثرى، فَفَرشت الحُلَل بمصبّغات الحُلل، فسمع الورد هُتاف العندليب، وحنين الدواليب، ففتح فاه مشتاقًا إلى مشروب، فإذا الطلُّ صبوح[3] فقال: ألا منادم؟ فأبت الأزهار مشاركة من لا يقيم، فأجابه بعد اليأس الياسمين، فقال: أنا نظيرك في قصر العمر، والمؤانسة في المجانسة، فأشِرْ أنت إلى المُذنب باحمرار الخجل، حتى أشير أنا إلى الخائف باصفرار الوَجَل.

فرأى البلبلُ طيب الاجتماع فغنّى، فَرَنّتْ ديار اللهو، فدخل الناطور[4] والصياد، فاقتطف الناطور رأس الورد، واختطف الصيادُ البلبلَ الوغد[5]، فذُبح في الحال العصفور، وحُبس الورد في قواريرِ

(١) الحفش: البيت الحقير القريب السقف بالأرض.

(٢) الريع: النماء والزيادة.

(٣) الصبوح: ما شُرب غدوة، والغبوق: ما شرب مساءً.

(٤) الناطور: حارس البستان.

(٥) الوغد: ضعيف الجسم.

الزور[1]، وقيل للياسمين. لم اغتررت بالزور؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] فلما بكى الورد بكاء نادم على الاغترار، صَلحَ للمتطيبين، فأنين المذنبين أحبُّ من زَجَلِ المسبحين.

فانتبه يا مخدوع، فالعمرُ الوردُ، والزجاجةُ القبرُ، والنفسُ البلبلُ، والقفصُ اللحدُ.

* * * *

سيقطعُ ريبُ البين بين الفريقين	لكل اجتماعٍ فرقةٌ من يد البين
وكلٌّ يُقَضَّي ساعة بعد ساعةٍ	تُخاتله عن نفسه ساعة الحَيْنِ
وما العيش إلا يومُ موتٍ له غدٌ	وما الموت إلا رقدةٌ بين يومين
وما الحشر إلا كالصباح إذا انجلى	يقوم له اليقظانُ من رقدةِ العين
أيا عجبًا مني ومن طول غفلتي	أُؤمِّل أن أبقى وأنّى ومن أين؟

إخواني! المستقرّ يزول، والمقيمُ منقول، والأحوال تحولُ، والعتابُ على الفاني يطول.

الطريق الهادية واسعة الفجاج، والدليل ظاهر لا يحتاج إلى احتجاج، وأما بحر الهوى فما يفارقه ارتجاج، ما فيه ماءٌ للشرب بل كُلُّهُ أُجاج.

إخواني! قد بشّر الرَّشَاشُ فاثبتوا، وقد سال الوادي.

---

(١) الزور: مجلس اللهو والغناء.

زمنًـــا كــــان وكُنَّـــا جـــيرةً   يـــا أعـــاد الله ذاك الزَّمَنَـــا

إذا خرجت القلوب بالتوبة من حبس الهوى إلى بيداء الإنابة، جَرَتْ خيولُ الدمع في حَلَباتِ الوجد كالمرسلات عُرفًا.

إذا استقام زرع الفكر، قامت العبرات تسقي، ونهضت الزفرات تحصدُ، ودارت رحا النشيج تطحن، واضطرمت نارُ القلق تُنضجُ، فحصلت للقلب بُلَّةٌ يتقوّى بها في سَفر الحُبِّ.

يا من لم يصبر عن الهوى صبر يوسف، تَعَيَّنَ عليك حزنُ يعقوب، فإن لم تُطِقْ، فَذِلّةُ إخوته يوم ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨].

خوفُ السابقة وحذرُ الخاتمة قلقل قلوب العارفين، وزادهم إزعاجًا ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] كلّما دخلوا سِكّةً من سِكك السكون شَرَع بهم الجزعُ في شارع من شوارع القلق.

في كل الليل تهبُّ الرياح، ولكن لِنَسِيْم السحر خاصيّة، ما أظنُّه تعطّر إلا بأنفاس المستغفرين، لِنَفَسِ المحبِّ عطْرِيَّةٌ تنمُّ على قدْرِ طيْبِهِ.

وإني لأُغـرى بالنسيم إذا سَرَى   وتُعجبنـي بـالأبرقين رُبُـوعُ
ويَحْني على الشوقِ نجديٌّ مُزْنَهِ   وبـرقٌ بـأطراف الحجاز لمـوعُ
ولا أعرفُ الأشجان حتى تشوقني   حمـائمُ ورقٍ في الديار سُـجوع

المحبّون على شواطئ أنهار الدمع نُزول، فلو سرْت عن هواك

خطوات لاحت لك الخيام.

وصـــلوا إلى مـــولاهم وبقينـــا وتنعمـــوا برضـــائه وشـــقينا
ذهبـت شـبيبتنا وضـاع زمانُنـا ودنــت منيتنــا فمــن ينجينــا؟
فتجمعـوا أهـل القطيعـة والجفـا نبكـي شـهورًا قـد مضت وسـنينًا

كـان بعـض السلف يقـول: اللّٰهم إن منعتنـي ثـواب الـصالحين، فـلا تحرمني أجر المصاب على مصيبته.

وكان آخر يقول: إن لم ترضَ عنّي فاعف عني.

كان القومُ زينة الدنيا، فمُذْ سُلبوا تسلَّبت[1] خلت والله الديار وباد القوم، وارتحل أربابُ السهر وبقي أهلُ النوم، واستُبدل آكلي الشهوات بأهل الصوم.

أشدُّ الناس حُبًا لحديث الحجاز من سافر.

فكانـــت بـــالفرات لنـــا ليـــالٍ سرقنـــاهُنَّ مــن بعــض الزمـــانِ

يا هذا! كنت تستطيب رياح الأسحار، وما تغيَّر المهبُّ، ولكن دخل فصلُ بَرد الفتور ولم تحترز، فأصابك زكام الكسل.

كنت في الرعيل الأول، فما الذي ردّك إلى السَّاقَة[2]؟

(١) تسلبت: لبست السلاب، وهو ثوب الحداد، لأن المرأة تمتنع فيه عن لبس أثواب الزينة، أما تخصيصه بالأسود فلا أصل له في الشريعة.

(٢) الساقة: المؤخرة.

قِف الآن على جادّة التأسف، والزم البكاء على التخلّف، فأحقُّ الناس بالأسى من خُصَّ بالتعويق دون الرُّفقاء.

يا صاحبيَّ أطيلا في مؤانستي	وعلِّلاني بخلّاني وأشواقي
وحدثاني حديث الخيف إن له	روحًا لقلبي وتسهيلًا لأخلاقي
واضيعة العمر لا الماضي انتفعت به	ولا حصلت على علمٍ من الباقي
بلى علمت وقد أيقنت يا أسفاً	أنِّي لكلّ الذي قدَّمته لاقٍ

****

إخواني! من عاملَ الدنيا خسر، ومن حَمَل في صفِّ طلبها كُسر، ألا وإن خلاص مُحبِّها منها عسر، وكل عاشقيها قد قُبِرَ وأُسر ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وكيف أُشيدُ في يومي بناءً	وأعلمُ أن في غدٍ عنه ارتحالي
فلا تنصُبْ خيامك في محلِّ	فإن القاطنين على احتمال[(١)]

يا معاشر العلماء! أتقنعون من الصفات بالأسماء؟ أتؤثرون الأرض على السماء؟ أفي السكر أنتم أم في الإغماء؟ أترضون بالثُّريا الثّرى؟ أتُغمضون العيون من غير كرى؟ أتنامون فمن يحمدُ السُّرَى؟ أتحلُّون عقد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١] إنكم لأحقُّ بالحزن فيما أرى.

---

(١) احتمال: رحيل.

يـا قومنـا هـذي الفوائـد جمـةٌ   فتـخيّروا قبـلَ الندامـة وانتقُـوا
إن مـسَّكم ظمـأ يقـول نـذيركم   لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا

يا معاشر العلماء! قد كتبتم ودرستم، ثمّ إن طلبكم العلم فلستم في بيت العمل، ثم لو ناقشكم الإخلاصُ لأفلستم.

شـجرةُ الإخـلاص أصـلُها ثابـتٌ، لا يـضرّها زعـزع[1] ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل: ٢٧] وأمـا شـجرة الريـاء فاجتثـت عنـد نـسمة ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ [الصافات: ٢٤].

كم متشبّه بالمخلصين في تخشّعه ولباسه، وأفواهُ القلوب تنفر من طعم مذاقه، واأسفى ما أكثر الزور! أما الخيام فإنها كخيامهم، ليس كل مستدير يكون هلالًا، لا لا، وما كُلّ من أوْمى إلى العزّ ناله، ودون العلى ضرب يُدمِّي النواصيا.

فما كـل دار أقفـرتْ دارةُ الحمـى   ولا كـلّ بيـضاءِ الترائـب زينـبُ

ريـحُ المخلـصين عطريـةُ القبـول، والمرائـي سـموميُّ النـسيم، نفـاقُ المنـافقين صـيَّرَ المـسجد ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨] وإخـلاص المخلصين رفع قدر «**رب أشعث أغبر**»[2].

---

(١) زعزع: الريح الشديدة.

(٢) رواه مسلم.

أيها المرائي قلب من ترائيه بيد من تعصيه، المرائي على باب السلطان يدّعي أنه خاصٌّ وهو غريب، ذهب أهل التحقيق وبقيت بُنيّات الطريق، خلت البقاع من الأحباب، وتبدّلت العمارةُ بالخراب، يا ديار الأحباب عندك خبرٌ! المخلص يبهرجُ على الخلق بستر الحال، وببهرجته يصحُّ النقد.

كان في ثوب أيوب السختياني بعض الطول لستر الحال، وكان إذا وعظ فَرَقَّ، فَرَقَ قلبُه من الرياء فيمسحُ وجهه ويقول: ما أشد الزكام.

أحبس دمعي فينـدُّ شاردًا كأنني أحبسُ عبدًا آبقًا
ومن محاشاة الرقيب خِلتُني يوم الرحيل في الهوى منافقًا

كان أيوبُ يحيي الليل كله، فإذا كان عند الصباح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

وكان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخلٌ غطّاه.

وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخلٌ وهو يصلّي اضطجع على فراشه.

أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيبِ

مرض إبراهيم بن أدهم فجعل عند رأسه ما يأكله الأصحّاء، لئلا يتشبّه بالشاكين، هذه والله بهرجة أصحُّ من نقدك.

اشتُهر ابن أدهم ببلد فقيل: هو في البستان الفلاني، فدخل الناس يطوفون ويقولون: أين إبراهيم بن أدهم؟ فجعل يطوف معهم ويقول:

أين إبراهيم بن أدهم.

قُرِئ على أحمد بن حنبل في مرضه أن طاووسًا كان يكره الأنين، فما أنَّ حتى مات.

تفـــيض نفـــوسٌ بأوصـــابها وتكـــتمُ عوّادَهـــا مـــا بهـــا
ومـا أنـصفتْ مهجـةٌ تـشتكي هواهـــا إلى غـــير أحبابهـــا

رحَل والله أولئك السادة، وبقي قرناء الرياء والوسادة، أسمعُ أصواتًا بلا أنيس، وأرى خشوعًا أصله من إبليس.

ذمَّ المنـازلَ بعـد منزلـة اللـوى والعـيشَ بعـد أولئـك الأقـوام

* * * *

يا من قد أُرخي له في الطِّوَل[1] وأُمهل له بمدّ الأجل، اخل بنفسك وعاتبها، وخذ على يدها وحاسبها، لعلها تأخذُ عدتها قبل أن تستوفي مدتها.

وجـــدتُ أيـــامي بي رواحـــلًا متـــى يـــنحط عنهـــا الراحـــلُ
وكـــل شيء زاجـــرٌ محـــدِّثٌ يفهـم مـا قـال الحـصيف العاقـل

إخواني بادروا قبل العوائق، واستدركوا، فما كل طالبٍ لاحق، واشكروا نعمة من ستركم مع الذنوب، واعرفوا فضله فقد أعطاكم كل

(١) الطِّوَل: الحبل يُرخى للدابة لترعى، وهنا كناية عن فسحة الأجل.

مطلوب، ما أعمَّ جوده لجميع خلقه! وما أكثر تقصيرهم في حقه، عمَّ إحسانُه الآدميُّ والبهائم، والمستيقظ والنائم، والجاهل والعالم، والمتقي والظالم.

من تأمّل حسن لطفه لخليقته حيّره الدَّهَش، خلق الجنين في بطن الأم فجعل وجهه إلى ظهرها لئلا يجري الطعامُ عليه، وسيق قوتُه في مِصْران السُّرَّة، وليس العجب تغذيه لأنه متصل بحيّ، إنما العجب خلقُ الفرخ في البيضة المنفصلة، فقد هيأ له زاد الطريق قبل سير الإيجاد.

كلّما طالت ساق الحيوان طال عنقه، ليمكنه تناول طُعْمه من الأرض.

هذا طائر الماء لا يقف إلا في ضحضاح، فيتأمل ما يدُبُّ في الماء، فإذا رأى ما يريد خطا خطوات على مهل فيتناول، ولو كان قصير القوائم، كان حين يخطو يضرب الماء ببطنه فيهرب الصيدُ.

خُلق الطير ذا جؤجؤ[1] مخدد، لتجري سفينة طيرانه في بحر الهواء، وجعل في جناحه وذنبه ريشاتٍ طوالًا لينهض للطيران، ولما كان يختلس قوته خوفًا من اصطياده، جُعل منقاره صلبًا لئلا ينسحج[2] ولم يُخلق له أسنان لأن زمان الانتهاب لا يحتمل المضغ، وجُعلت له حوصلة كالمخلاة، فينقل إليها ما يسلُب، ثم ينقله إلى القانصة في زمان الأمن، فإن

(١) الجؤجؤ: الصدر.
(٢) ينسحج: يتقشر.

كانت له فراخ أسهمهم قبل النقل.

هذه العنكبوت تبني بيتها بصناعة يعجز عنها المهندس، إنها تطلب زاوية فتجعل فيها خيطًا، وتصلُ بين طرفيها بخيط آخر، وتُلقي اللعاب على الجانبين، فإذا أحكمت المعاقد ورتَّبت السُّدى أخذت في اللُّحمة[1] فيظن الظان أنها نسجت عبثًا، كلا، إنها تصنع شبكة صيد قوتها، فإذا أتمت النسج انزوت إلى زاوية ترصدُ رَصْدَ الصائد، فإذا وقع صيد قامت تجني ثمار كسبها فتغتذي به، فإذا أعجزها الصيدُ طلبت زاوية ووصلت بين طرفيها بخيط، ثم علّقت نفسها بخيط آخر، وتنكست في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها، فإذا دنت منها دبّت إليها واستعانت على قتلها بلف الخيط على رجلها، أفتراها عَلِمَتْ هذه الصنعة بنفسها؟ أو قرأتها على بعض جنسها؟ أفلا يُنظر إلى حكمة من عَلَّمها وتثقيف من ألهمها؟

فإن لم يكن لك نظرٌ يُعجبك منها فتعجّب من عدم تعجُّبك، فإن أعجب القدر ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

القلب جوهر في معدن البدن، فاكشف عنه بمعول المجاهدة، ولا تطيِّنْهُ بتراب الغفلة، رميت صخرة الهوى على ينبوع الفطنة فاحتبس الماء، انقب تحتها إن لم تُطق رفعها لعل الجرُف ينهار.

إلهي! ما أكثر المعرضين عنك والمعترضين عليك! وما أقلَّ

(١) السُّدَى: ما يمدّ طولًا في النسيج، واللُّحمةَ: ما يُنسج عرضًا.

المتعرضين إليك.

يا روحَ القلوب! أين طُلَّابُك؟ يا نور السماوات! أين أحبابُك؟ يا رب الأرباب! أين عُبَّادُك؟ يا مسبّب الأسباب! أين قُصَّادُك؟ من الذي عَامَلَكَ بلبّه فلم يربح؟ من الذي جاء بكربه فلم يفرح؟ أيُّ صدرٍ صَدَر عن بابك ولم يُشرح؟ من ذا الذي لاذ بجنابك فاشتهى أن يبرح؟ يا مُعرضًا عنه إلى من أعرضت؟ يا مشغولًا بغيره بمن تعوَّضت؟

مُتْ على من غبتَ عنه أسفاً   لست عنه بمصيب خَلَفاً

* * * *

بِعت قيام الليل بفضل لقمة! شربت كأس النعاس ففاتتك الرفقة، ضُرب على أُذنك لا في مرافقة أهل الكهف، تناولت خمر الرُّقاد فجُعل حَدُّك الحبس عن لحاق المتهجدين.

والله لو بعتَ لحظةً من خلوةٍ بالله بعمر نوح في ملك قارون لغُبنت، لا بل بما في الجنان كلها ما ربحت، ومن ذاق عَرَف.

إخواني! اسمعوا بحُرمة الوفاء، فما كُلُّ وقت يطلع سُهَيل[1] فإذا خرجتم من الموعظة، فاقصدوا المكان الخالي، وَضَعُوا وجوهكم على التراب، وابعثوا أنفاس الأسف، وكفى بها شفيعًا في الزلل، فإذا وجدتم قلوبكم قد حضرت فاذكروني معكم.

(١) سهيل: نجم يماني. قيل: عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ.

وقولوا لجيرانٍ على الخيف من مِنًى تــراكُمْ مَــن اســتبدلتُمُ بجواريــا
ومــن وَردَ المــاءَ الــذي كنــتُ واردًا به ورَعَى الروض الذي كنتُ راعيا
فوالهفتي! كم لي على الخيف شهقةً تــذوب عليهــا قطعــةٌ مــن فؤاديــا

* * * *

يا تائهًا في بوادي الهوى! انزل ساعة في بوادي الفكر، يُخبرك بأن اللذة قصيرة والعقاب طويل، واعجبًا لمن يشتري لذة ساعة بغمّ الأبد، كانت المعصية ساعةً، لا كانت، فكم ذلّت بعدها النفس، وكم تصاعد لأجلها النَّفَس، وكم جرى لتذكارها دمعٌ.

يــا عــاذَل المــشتاق دَعْــهُ فإنّــه يطوي على الزفرات غيرَ حشاكا
لــو كــان قلبُــكَ قلبَــهُ مــا لمتَــهُ حاشــاك ممــا عنــده حاشــاكا

ما انتفع آدم في بليّة ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ [طه: ١٢١] بكمال ﴿ وَعَلَّمَ ﴾ [البقرة: ٣١] ولا رَدّ عنه عز ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ [البقرة: ٣٤] وإنما خلّصه ذل ﴿ظَلَمۡنَآ﴾ [الأعراف: ٢٣].

لو أشرفت على وادي الدُّجى، لرأيت خيم القوم على شواطئ أنهار الدموع، خلوا ـ والله ـ بالحبيب، وطال الحديث، عين تبكي من المحبوب، وأخرى تبكي عليه، ريٌّ تامٌّ بمحبته، وعطشٌ مُحرقٌ إلى رؤيته.

* * * *

إخواني! ما قُتِلَ أحدٌ بأحدً من سيف سوف، ومواهب الأعمار مسترجعة بالأنفاس حتى تُسْتَوفَى ـ ألست نقضت عهد ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٤] بعد عقدِ عُقده؟! فكيف حَلَّ لك الحَلُّ؟!

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غَيِّهِ وخطاب من لا يفهمُ

إخواني! مصيبتنا في التفريط واحدة، وأهل الأحزان أهلٌ.

إنا ليجمعنا البكاءُ وكلُّنا نبكي على شَجَنٍ من الأشجانِ

سل الليل عن الأحباب فعنده الخبرُ، خلا الفكر بالقلب في بيت التلاوة، فجرت أوصاف الحبيب، فنهض قلقُ الشوق يضرب بطون الرواحل، لينهر السهر، فلا وجه لنوم القوم.

يا عيونًا بالغضا راقدةً حرَّم الله عليكنَّ الكَرَى

حبذا فيكَ حديثٌ باطنٌ فطِنَ الدمعُ به فانتشرا

من لم يكن له مثل تقواهم، لم يعلم ما الذي أبكاهم؟

من لم يشاهد جمال يوسف، لم يعلم ما الذي آلم قلب يعقوب؟

من لم يَبِتْ والحُبُّ حشوُ فؤاده لم يَدْرِ كيف تفتُّتُ الأكبادِ

لو دمت على سلوك البادية، طابت لك ريح الشِّيح.

تقرُّ لعيني أن أرى رملة الحمى إذا ما بَدت يومًا لعيني قِلالُها

ولست وإن أحببتُ من يسكُن الغضا بأول راجٍ حاجة لا ينالُها

* * * *

يا من كانت له مع الله معاملة، وطالت بينه وبينه المواصلة، ثم اختار الهجر والمفاصلة، إن لم يكن جميلٌ، فلتكن مجاملة، تفكّر! تعرِفْ قدر ما فاتك، وابك لذنب حَرَمَك القرب وأفاتك.

ويا صاحبي أين وجد الصباح؟ وأين غدٌ؟ صِفْ لعيني غدا
وخلف الضلوع زفير أَبَى وقد بَرَد الليل أن يبرُدا

اللّهم نوّر دنيانا بنور من توفيقك، واقطع أيامنا في الاتصال بمناجاتك، وانظم شتاتنا في سلك طاعتك، فأنت أعلمُ بتلفيق المقترف.

أعدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد عشت دهرًا لا أعدُّ اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلنّي أحدث عنك النفس بالليل خاليا
إذا سرت أرضًا بالفضاء رأيتُني أصانعُ رحْلي أن يميل حياليا
خليليّ ما أرجو من العيش بعدما أرى حاجتي تُشرى ولا تُشترى ليا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كل الظنّ أن لا تلاقيا

* * * *

واشوقاه إلى أرباب الإخلاص! واتوقاه إلى رؤية تلك الأشخاص! إني لأحضرُ ذكركم فأغيب، وإن وقتي بتذكركم ليطيب.

إذا هزّنا الشوقُ اضطربنا لهزِّهِ على شُعَب الرَّحل اضطراب الأراقم[1]

(١) الأراقم: جمع أرقم: حيَّةٌ فيها سواد وبياض.

الإخلاص مِسْكٌ مصونٌ في مَسْكِ القلب[1]، تُنَبِّهُ ريحُه على حامله.

العمل صورة والإخلاص روح، المخلصُ يَعَدُّ طاعته لاحتقاره لها عَرَضًا، وقلمُ القبول قد أثبتها في الجوهر خالصًا، الإخلاص اليسير كثير، ووجود عمل الرياء عدم، خليجٌ صافٍ أنفع من بحر كدر، إذا لم تخلص فلا تتعب، أتحدو ومالَك بعير؟ أتمدُّ القوس وما لها وتر؟ أتتجشأ من غير شبع؟ واعجبًا من وَحْمَى[2] بلا حَبَل! كم يُذِلُّ نفسهُ مراءٍ لتمدحه الخلق، فذهبت والمدحُ، ولو بذلها للحقّ لبقيت والذكرُ، عملُ المرائي بصلةٌ كلها قشور، المرائي يحشو جراب العمل رملًا فيثقله ولا ينفعه، ريح الرياء جيفةٌ، تتحاماها مسامُّ القلوب، وما يخفى المرائي على مسانح[3] الفطن.

لما أخذت دودة القزّ تنسجُ، أقبلت العنكبوت تتشبّه، وقالت: لك نسجٌ ولي نسج، فقالت دودة القزّ: ولكن نسجي أردية الملوك، ونسجُك شبكة للذباب، وعند مس النسيجين يبين الفرق.

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبيّن من بكى ممن تباكا

شجرة الصنوبر تثمر في ثلاثين سنة، وشجرة الدبّاء تصعدُ في أسبوعين، فتقول لشجرة الصنوبر: إن الطريق التي قطعتيها في ثلاثين

(١) مِسْك الأولى: الطيب، مَسْك الثانية: الجلد.

(٢) وحمى: من الوحم ضيق في النَّفْسِ وتغيُّرَ للمرأة في أول حملها، وقد يستمر حتى الوضع.

(٣) مسانح: خواطر، من سنح: عرض وخَطَر.

سنة، قد قطعتها في أسبوعين، فيقال لي: شجرة، ولك: شجرة، فتجيبها: مهلًا إلى أن تهبَّ ريح الخريف.

كان الأشياخ في قديم الزمان أصحاب قَدَم[1] والطلابُ أرباب ألمٍ، فذهبَ القدمُ والألمُ.

كان الطالب يسألُ عن غُصَّةٍ، والشيخ يعرف القِصَّة، فاليوم لا غُصةٌ ولا قِصةٌ، كان الزهد في بواطن القلوب، فصار في ظواهر الثياب، ويحك! أصلح نيتك لا مُرَقَّعَتَكَ، غيّر زيّك أيها المرائي فهو يصيحُ: خذوني، واعباً ما للدواعي إلى الدعاوى الباطن ينطق. لما علم الصالحون خطر البيات، أدلجوا بأجمل الأعمال في ليل الكَتْمِ!

كان البكاء إذا غلب أيوب قال: ما أشد الزكام!

صام داود بن أبي هند أربعين سنة لم يعلم به أحد، كان يأخذ غداءه ويخرج إلى الدكان، فيتصدّق به في الطريق، فيظنّ أهل السوق أنه قد أكل في البيت، ويظنُّ أهلُه أنه قد أكل في السوق.

كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك، فإذا جاء الليل أخذ في البكاء.

نهاري نهارُ الناس حتى إذا بدا ... ليَ الليلُ هزَّتني إليك المضاجعُ
أُقضّي نهاري بالحديث وبالمُنَى ... ويجمعني والهمُّ بالليل جامعُ

---

(١) القدم: السابقة في الخير.

كان خوفهم من الرياء يوجب مدافعة النهار، فإذا خلوا بالحبيب لم يصبر المشوق، ولو قدروا على استدامة الكتمان ما أذاعوا.

إذا جنّ الليلُ وظلامُه، ثارَ شَجَنُ المحبِّ وسقَامُهُ، ورمى الحبُّ فأصابت سهامُهُ، واستطلقَ مزادُ العين فانهلّ سِجامُهُ، وطال بالحزين قعودُه وقيامه.

لو أبصرت طلائع الصديقين في أوائل القوم، أو شاهدت ساقة المستغفرين في أواخر الركب، أو سمعت استغاثة المحبِّين في وسط الليل.

من رأى البرق بنجدٍ إذ تراءى ... سلبَ النوم وأهدى البُرَحاءَ

* * * *

إخواني! سار المتقون ورجعنا، وواصلوا وانقطعنا، وأجابوا الداعي وامتنعنا، ونجوا من الأشراك ووقعنا، تعالوا ننظر في آثارهم، وندرسُ دارس أخبارهم، ونبكي من التفريط ما نابنا.

يا نسيم الريح بلِّغْ إليهم ... أنّ عَقْدِي معهم لا يُحَلُّ
لي من الريح الشمال انتهالٌ ... فإذا هبّتَ سُحيرًا فعلُّ[1]

سافر القوم على رواحل الصدق، فقطعوا أرض الصبر حتى وقعوا برياض الأُنس.

---

(١) فعلّ: من العلّ، وهي الشَّرْبَةُ الثانية، علَلاً بعد نَهَل.

فـإن كلانـا هـذه عـشر أبطـن وأنـت بـريء مـن قبائلهـا العشرُ

أعندك من حديثهم خبر؟ ألك في طريقهم قدم؟ فيا خيبة النائمين!

لمّا تمكّنت المعرفة من قلوبهم أثمرت شدة الخوف، فتنمو العدم.

رأى الصديق طائرًا فقالك طوبى لك يا طائر! تقع على الشجر، وتأكل من الثمر، ولا حساب عليك، ليتني كنت مثلك.

وقال عمر: ليتني كنت تِبْنةً، وليت أمي لم تلدني.

وقال عمران بن حصين: ليتني كنت رمادًا.

وقال أبو الدرداء: ليتني كنت شجرة تعضد.

وقالت عائشة: ليتني كنت نسيًا منسيًا.

سمعوا وعيد الله، فباتوا على حُرَقٍ، وأكلوا على تنغيص، فنومهم نوم الغرقى، وأكلهم أكل المرضى، عجزت أبدانهم عمّا حملت قلوبهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قال أبو طارق: شهدت ثلاثين رجلًا دخلوا مجالس الذكر يمشون بأرجلهم صحاحًا إلى المجالس، وأجوافهم والله قرحةٌ، فلمّا سمعوا الذكر، انصدعت قلوبهم.

وقال عبد الواحد بن زيد: لو رأيت الحسن لقلت: قد بُثّ عليه حزن الخلائق، ولو رأيت يزيد الرقاشي لقلت مُثْكَلٌ.

المحبّ إن تذكّر الربع حَنّ، وإن تفكر في البعد أنّ، وإن جَنَّ عليه الليلُ أظهر ما أجنّ.

* * * *

إخواني! الخلوة مَهْرُ بِكر الفكر، وسُلَّم معراج الهمة، حريمُ العُزلة مصونٌ من عيب العبث، إذا خلت دار الخلوة عن الصّور، تفرّغ القلب لملاحظة المعاني.

يا هذا! إذا رُزقت يقظةً فصُنْها في بيت عزلة، فإن أيدي المعاشرة نهّابة، احذر معاشرة الجُهال، فإن الطبع لصٌ، لا تُصادقنّ فاسقًا، فإن من خان أول منعمٍ عليه لا يفي لك.

يا أفراخ التوبة! لازموا أوكار الخلوة، فإن هِرَّ الهوى صَيُود، إياك والتقرب من طرف الوكر، والخروج من بيت العزلة، حتى يتكامل نباتُ الخوافي(1) وإلا كنت رزق الصائد.

الأُنس بالإنس كالغِرَاء، المخالطة توجب التخليط، وأيسر تأثيرها تشتيت الهمّ.

أقلُّ ما في سقوط الذئب في غَنَمٍ إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنمُ

قطع العلائق أصل الأصول لطيب الوصول.

---

(1) الخوافي: جمع خافيه وهي ما دون الريشات العشر من مقدّم الجناح في الطائر، والريشات الطوال تسمّى: القوادم.

كان أويسُ يهرب من الناس فيقولون: مجنون، وَصَفَ الرسول ﷺ لأصحابه صفته، فقوي تَوْقُ عمر، وكان في كل عام يسألُ عنه أهل اليمن[1].

ألا أيها الركب اليمانون عرِّجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نَعْمانُ بعدنا ... وحَبَّ إلينا بطنُ نعمانَ واديا

لما كانت آخر حجة حجها عمر، قام على أبي قيس فنادى: أفيكم أويس؟

وإني للشوق من بعدهم ... أُراعي الجنوب مراحًا وَمَغْدَى
وأفرح من نحو أوطانهم ... بغيث يجلجل برقًا ورعدا
إذا طلع الركب يَمَّمْتُهُمْ ... أحيي الوجوه كهولًا ومُرْدا
أسائلهم عن عقيق الحمى ... وعن أرض نجدٍ ومن حلّ نجدا
نشدتكم اللهَ فلْيخبرنَّ ... من كان أقرب بالرمل عهدا
هل الدار بالجزع مأهولةٌ ... أثار الربيعُ عليها وأسدى

كان أويس يأتي المزابل إذا جاع، فأتاها يومًا فنبح عليه كلبٌ، فقال: يا كلب! لا تؤذ من لا يؤذيك، كل مما يليك، وآكل مما يليني، فإن دخلتُ الجنة فأنا خير منك، وإن دخلتُ النار فأنت خير مني.

ذُلُّ الفتى في الحب مكرمةٌ ... وخضوعه لحبيبه شَرَفُ

(١) وبعض أخبار أويس في ثبوتها كلام.

صاحبْ أهل الدين وصافِهم، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم، واسكن معهم بالتأدب في دارهم، وإن عاتبوك فاصبر ودارهم، إن لم يكن لك مَكَنَةُ البذر ولم تُطق مراعاة الزرع، فقَفْ في رفقة ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء: ٨] أنت في وقت الغنائم نائم، وقلبك في شهوات البهائم هائم.

وإن صدقت في طِلابهم فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمُعين قادر. تعرّض لمن أعطاهم وسَلْ فمولاك مولاهم، رُبَّ كنز وقع به فقير، ورُبّ فضل فاز به صغير، عَلِم الخضرُ ما خفي على موسى، وكُشف لسليمان ما غُطّي عن داود.

يا هذا! لا تحتقر نفسك فالتائب حبيب الله، والمنكسر مستقيم، إقرارُك بالإفلاس غِنًى، اعترافُك بالخطأ إصابة، تنكيس رأسك بالندم رفعة، عُرَضت سلعة العبودية في سوق البيع فبذلت الملائكة نقد ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال آدم: ما عندي إلا فُلوس إفلاسٍ نقشها ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] فقيل: هذا الذي ينفق على خزانة الخاص، أنين المذنبين أحبُّ إلينا من زجل المسبحين.

واستعذبوا ماء الجفون فعذّبوا   الأسرار حتى درّت الآماقُ

يا معاشر المذنبين! إن كان يأجوج الطبع، ومأجوج الهوى، قد عاثوا في أرض قلوبكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] اجمعوا

عزائم قوية تشابه زُبَرَ الحديد، وتفكروا في خطاياكم، لتثور صُعَداءُ الأسف، شيدوا بُنيان العزائم بهجر المألوف ليستحجر البناء، هكذا بناء الأولياء قبلكم، فجاء الأعداء ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧].

ليس عزمًا ما مَرض المرءُ فيه   ليس همًا ما عاقَ عنه الظلام

الجدَّ الجدَّ، فما تحتمل الطريقُ الفتور، ضاقت أيام الموسم، فجعجعوا بالإبل[١].

كان أُسيد الضبّي إذا عوتب في كثرة بكائه يقول: كيف لا أبكي وأنا أموت غدًا؟

وكانت عابدةٌ لا تنام من الليل إلا يسيرًا، فعوتبت في ذلك فقالت: كفى بطول الرقدة في القبور رقادًا.

هذه طريقُهم فأين السالك؟ هذه صفاتهم فأين الطالب؟

* * * *

أيها المُقصّر عن طلب المزاد! كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟ أين أهل السهر من أهل الرّقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رَحَل المتيقّظون مستظهرين بكثرة الزاد، كلّ جوادٍ لهم يعرف الجوادّ[٢] فساروا فزاروا والكسلان عاد.

---

(١) جعجع بالإبل: حرّكها للنهوض.

(٢) الجوادّ: جمع جادّة وهي الطريق.

يا قلبُ ما أنت من نجدٍ وساكِنهِ ... خلّفت نجدًا وراء المُدلج الساري
أهفو إلى الركب تعلُو لي ركائبُهم ... من الحِمى في أُسيحاق[1] وأطمار
يا راكبان قِفا لي فاقضيا وَطري ... وحدّثانيَ عن نجدٍ بأخبارِ
فلم يزالا إلى أن نمَّ بي نفسي ... وحدَّث الركبَ عنّي مَدْمَعِي الجاري

لمّا صَفت خلوات الدُّجى، نودي آذِنُ الوصول: أقم فلانًا وأنمْ فلانًا.

خرجت بالأسماء الجرائد، وفاز الأحباب بالفوائد.

تقولين ما في الناس مثلك وامقٌ[2] ... جِدي مثلَ من أحببتُهُ تجدي مثلي
ذريني أنلْ ما لا يُنال من العُلى ... فصعبُ العُلى في الصّعب، والسهلُ في السهل
تريدين لقيان المعالي رخيصةً ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

ستر القوم قيامهم بالليل، فستر جزاءهم أن يطّلع عليه الغير ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧].

اشتُهر بقيام الليل كله، وصلاة الفجر بوضوء العشاء، سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليمان، ومحمد بن المنكدر، وفضيل ووهب وطاووس والربيع بن خُثيم وأبو سليمان الداراني وسليمان التميمي[3] ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وحبيب العجمي ويحيى البكّاء وكهمس

---

(١) أُسيحاق: مصغر إسحاق، وهي الثياب البالية.

(٢) وامق: محب.

(٣) كذا ولعل الصواب: التيمي.

ورابعة.

قالت أم عمرو بن المنكدر: يا بُني أشتهي أراك نائمًا. فقال: يا أمّاه إن الليل ليردُ علي فيهولني، فينقضي عني وما قضيت منه مآربي.

وصحب رجلٌ رجلًا شهرين فما رآه نائمًا[1] فقال له: مالك لا تنام؟ فقال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعتُ في أخرى.

يا طويل النوم! فاتتك مِدْحةُ ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ [السجدة: ١٦] وحُرمت منحة ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧].

ثَـوَّرتْ في الليـل الحُـداةُ، ورُبطـت أحمـالُ الأعـمال، وسـارت رفقـةُ المتهجدين، وترنّم كلُّ ذي صوت بشجوٍ، وأنت في الرقدة الأولى بعدُ.

يا هذا! كيف تُطيقُ السهر مع الشبع؟ كيف تزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل؟

أتبكـي عـلى لـيلى وأنـت تركتهـا ... فقـد ذهبـت لـيلى فـما أنـت صـانعُ

****

إذا هبّت رياح المواعظ أثارت من قلوب المتيقظين غيم الغمّ على ما سلف، وساقته إلى بدل الطبع المنحرف برعد الوعيد وبرق الخشية،

(١) أي في الليل.

فتترقى دموع الأحزان من قعر بحر القلب إلى أوج الرأس، فتسيل ميازيب الشؤون على سطوح الوجنات، فإذا أعشب الصدر اهتز فرحًا بالإنابة.

محت بعدكم تلك العيونُ دموعَها ... فهل من عيون بعدها نستعيرُها
رحلنا وفي سر الفؤاد ضمائرٌ ... إذا هبّ نجدي الصَّبا يستثيرُها
أتنسى رياض الغَورِ بعد فراقها ... وقد أخذ الميثاق منك غديرُها
يُجَعِّدُهُ مَرُّ الشمال وتارة ... يغازله كَرُّ الصَّبا ومرورُها
ألا أيها الركب العراقيُّ بلّغوا ... رسالة محزونٍ حواه سطورُها
إذا كتبت أنفاسُه بعض وجدها ... على صفحة الذكرى محاه زفيرُها
تَرَفَّقْ رفيقي هل بدت نار أرضهم ... أم الوجدُ يُذكي نارَهُ ويثيرُها
أَعِدْ ذكرهم فهو الشفاء وربما ... شفى النفس أمرٌ ثم عاد يضيرُها
سقى الله أيامًا مضت ولياليًا ... تضوّعَ ريَّاها وفاح عبيرُها

كان في خدّ عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء، وكان في وجه ابن عباس كالشراكين الباليين من الدمع.

وكان الحسن يبكي حتى يُرحم، وكان الفضيل بن عياض يبكي في النوم حتى ينبّه أهل الدار ببكائه.

ألا من لعينٍ من بُكاها على الحمى ... تجفُّ ضروعُ المزن وهي حَلُوبُ
بكت وغديرُ الحيّ طامٍ وأصبحت ... عليه العطاشُ الحائماتُ تلوبُ

وما كنت أدري أن عينًا ركيّةٌ ولا أن ماء المأقيَيْن شَرُوبُ

قال عليه الصلاة والسلام: «**عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله**»(١).

قيل لثابت البُناني: عالج عينيك ولا تبكِ، فقال: أي خيرٍ في عينٍ لا تبكي.

إخواني! حرُّ الخوف صيفُ الذَّوبان، وبرودة الرّجاء شتاء، سبحان من روّح أرواح الخائفين بريح الرجاء الضعيف، إذا لم يُتلاف تَلِف، لابد للمكروب من نسيم بارد.

وقف عتبة الغلام ليلة على ساحل البحر إلى الصباح يقول: إن تعذبني فإني لك محبّ، وإن ترحمني فإني لك محبّ.

يا قومنا! المحب مع بذل روحه يرتاح إلى المنى والتعليل، لأنه لا يرى ما بذل يصلحُ ثمنًا لما طلب.

دخلوا على رابعة فقالت: لقد طالت علي الأيام بالشوق إلى لقاء الله تعالى.

ودخلوا عليها مرة أخرى فقالوا: أتشتاقين إليه؟ فقالت: هو حاضر معي(٢).

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه.

(٢) أي بعلمه وإحاطته وألطافه والأنس به واستشعار قربه ومناجاته.

قالوا: هذا ضدّ الأول. فأجابت بلسان الحال: هكذا تحيّر المحبّ.

ومــن عجــب أني أحــنّ إلــيهمُ وأسـألُ شـوقًا عـنهمُ وهـمُ معـي

وتطلبهم عيني وهـم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

* * * *

المحبّ يتعلق بكل شيء، ويهيم في كل واد، على القلق يمشي، وعلى الحُرَقِ يُمسي.

كـان رسـول الله ﷺ يخـرج إلى حـراء، ويبـدو إلى الـتلاع[١]. مقاسـاة الخلق ظلمة، والحبيب لا يتجلَّى إلا في خلوة[٢].

وأخـرجُ مـن بـين البيـوت لعلّنـي أحدث عنكِ النفس في الليل خافيا[٣]

(١) التلاع: ما ارتفع من الأرض وما انهبط، وهو من الأضداد، والمراد الارتفاع. وعند أبي داود بسند حسن من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «كان يبدو إلى التلاع» ولمسلم عنها «فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه» وبنحوه في البخاري.

(٢) أي بالأنس به واستشعار قربه كأنه يراه.

(٣) وكان شيخ الإسلام ربما برز إلى البرّيّة وذكر الله وتمثل بهذا البيت، فهو قد أخذ المعنى الكلي من هذا البيت وليس التفصيلي، وفي هذا سعة لمن ضبط نفسه دون من انفلت قيادها فوقع في سوء الأدب مع الله تعالى، ناهيك عمن ولج باب الضلالتين الاتحاد والحلول، وهذا مسلك لا يحسنه إلا القليل، ومن لم يكن عنده علم وبصيرة فليقف حيث وقف القوم وفي القرآن والسنة كفاية وغنية لمن أحسن الله إليه وهداه الصراط المستقيم.

المحب مقتولٌ بلا سيف، مُلقًى في مِنَى المُنى لا عند الخيف[1] إذا سمع صوت منشدٍ قد غرّد، خلع لجام الصبر وتشرّد.

ولما غـرّد الحـادي وسـار القـوم في الـوادي
وراح القلـب يتـبعهُم بـلا مـاء ولا زاد
رأيـت قتيـلَ بَيْـنِهِمُ[2] صريعًـا مـا لـه فـادِ[3]

كانت أضلاع عمر بن عبد العزيز تُعَدُّ، وكان جسد سَرِيٍّ كالشَّنِّ[4].

وقف أبو يزيد في المحراب فكبّر فتقعقعت عظامه.

وإني لَتَعْـرُوِني لـذكراك لوعـةٌ لها بين جلدي والعظام دبيبُ
فما هـو إلا أن أراها فجـأةً فأُبهَـتُ حتـى لا أكادُ أُجيبُ

إذا رأيت محبًا ولم تدر لمن؟ فضع يدك على نبضه، وسَمِّ كلَّ من تظنُّهُ المحبوب، فإن النبض لا ينزعج إلا عند ذكره ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وهل الحبُّ إلَّا زفرةٌ بعد زفرةٍ وحرٌّ على الأحشاء ليس له بَرْدُ
وفيضُ دموع تستهلُّ إذا بدا لنا عَلَمٌ من أرضكم لم يكن يبدو

(١) المقصود مشعر منى.
(٢) البين: البعد والفراق.
(٣) الفادي: أي من يفتديه.
(٤) الشّنّ: القربة الخلِقة.

المحب في قلقٍ لا سكون له، والعجب أنه يتكلف الثبات، ويبالغ في كتمان وجده، غير أن الدمع نمّامٌ.

كان أكثر القوم إذا جاءه البكاء دافعه اتقاء الناظر، فيغلبه ولا حيلة.

أشدّ على المحب من مقاساة الحب سماعُ اللوم، واعجبًا من خليّ يعذل ذا شجىً.

ويحك! خلِّ شأنه وشانه.

فيا حبَّهم زدني جوىً كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ

لما أسلم سعد بن أبي وقاص قالت له أمه: والله لا آكل ولا أشربُ ولا يظلني سقف بيت حتى تكفر بمحمد، ويحها! ما خَبِرَتْ خبر المحبة! متى وقع السُّلُوُّ في حبٍّ صادق؟!

عذل العواذل حول قلبي التائِهِ ... وهوى الأحبة منه في سودائه
القلب أعلم يا عذول بدائه ... وأحق منك بجفنه وبمائه
أَأُحبُّهُ وأُحبُّ فيه ملامةً ... إن الملامة فيه من أعدائه
لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى تكون حشاك في أحشائه

واعجبًا لعاذلٍ في حبٍّ ما ذاقه، وآمرٍ بهجر حبيبٍ ما شاقه.

وقف الهوى بي حيث أنت فليس ليَ ... متأخرٌ عنه ولا متقدمُ
أجد الملامة في هواك لذيذةً ... حبًا لذكرك فليلمني اللوَّمُ

لو رأيت المحبَّ يهرب من العذْلِ إلى فَلَوات الخلوات، فإذا ناوله الوجدُ كأس الدموع اقترح عليه غناء الحمائم.

****

يا هذا! قد سمعت أخبار المتقين فسِر في سربهم، وقد عرفت جِدَّهُم فتناول من شِرْبهم، ثم سَلْ من أعانهم يُعِنْكَ فيما كان بهم.

لا يؤيّسنَّك من مجدٍ تباعُدُه ... فالمجد يدرك تدريجًا وترتيبا
إن القناة التي شاهدت رفْعتها ... تَنْمى وتُنبتُ أُنبوبًا فأنبوبا

استغنى القوم بطبيبهم عن مدح خطيبهم، فاسلك طريقهم تكن رفيقهم.

وسائلٌ عنهم ماذا يقدِّمُهم ... فقلت فضلٌ به عن غيرهم بانُوا
صانُوا النفوس عن الفحشاء وابتذلوا ... منهنَّ في سبل العلياء ما صانُوا
المُنعِمُون وما منّوا على أحدٍ ... يومًا بنُعمى ولو مَنُّوا لِمَا مانوا[1]
قوم يعزُّون إن كانت مغالبةً ... حتى إذا قدَرَت أيديهم هانوا

أطار خوفُ النار نومهم، وأطال ذِكرُ العطش الأكبر صومهم، يحسبهم الناظرُ مرضى الأبدان، وإنما بهم سقائم الأحزان.

قال صالح المري: كان عطاء السُّلمي قد اجتهد حتى انقطع،

(١) مان: احتمل مؤنته وقام به.

فصنعتُ له شربة سويق فلم يشرب فلمته، فقال: إني والله كلّما هممتُ بشربها ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣] فلم أقدر، فقلت: أنا في وادٍ وأنت في واد.

قلبُ المحب تحت فحمة الليل جمرة، كلّما هب النسيم التهبت.

تمر الصَّبا صَفْحَاً بساكن ذي الغضا ويصدَعُ قلبي أن يَهُبَّ هُبوبُها
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كلِّ نفس حيث حلَّ حبيبُها

سهر القوم يقع ضرورةً لأن القلق مانع من النوم، وليس لهم في تلك الشدائد راحة سوى جريان الدموع.

من صلّى بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار، شيمة المحب لا تخفى، وصحائف الوجوه يقرؤها من لم يكتب.

قطعت نياقُ جدّهم بادية الليل، ولم تجد مس التعب، الطريق إلى المحبوب لا تطول.

* * * *

يا مقيمًا في دائرة الغِيَر! كم حضرت فيها محتضر، كم عَايَنَتْ عينُك قبرًا يُحتفر، عجبًا!

ويحك تَعَاهَدْ قلبك، فإذا رأيته قد مال إلى الهوى، فاجعل في الجانب الآخر ذكر العقاب ليستقيم، فإن غلبك الهوى فاستغث بصاحب القلب، وإن تأخرت الإجابة فابعث رائد الانكسار خلفها تجد الفرج.

يا هذا! أما علمت أن اللطف مع الضعيف أكثر؟

إلٰهي! أَدِلْنَا[1] من نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا منا، وأعظمهم نكاية فينا.

إلٰهي! تلاعبت خوادع آمالنا ببضائع أعمارنا فصرنا مفاليس، أغارت علينا خيولُ الهوى فاستأسرتنا.

فيا مالك الملك أنقذ حبيسنا، وخلّص أسيرنا، وسيِّر أوبتنا من بلاد غربتنا، كم عُدنا مريضًا وما عُدنا! كم رأينا الألحاد تبنى وما تُبنا! كم أبصرنا وما أقصرنا! وانتهينا وما انتهينا! كم بادرنا إلى ما يضرّنا وانتهبنا وَمَا هِبْنَا!

يا ملاذ العارفين[2]! يا مَعاذ الخائفين! خذ بيد من قد زلّت قدم فطنته في مزلق فتنته، أقم من قعد به سوءُ عمله.

أصلحَ السحرة فجعلهم بررة، واعجبًا لعزمٍ صُلْبٍ ما هاله الصَّلب، والاحتراق على قدر الاشتياق.

لمّا علم المحبون أن الصبر محبوب المحبوب شمّروا لحمل البلاء، ثم حَلَى لهم فعدُّوه نعمة.

(١) أدلنا: انصرنا.

(٢) العارف: العالم بالله، أي عظيم الإيمان شديد التعلق بربّه وإن لم يكن ذا باع في علوم الشريعة، ولهذا المصطلح شواهد من صحيح السنة.

إخواني لسنا من رجال البلاء فسلوا الله العافية.

****

يا من أنفاسه عليه معدودة، وأبواب التقى في وجهه مسدودة، وأعماله بالنفاق والرياء مردودة، غير أن محبة التفريط معه مولودة.

حياتُك أنفاس تُعَدُّ فكُلَّما ... مضى نفس منها انْتَقَضْتَ به جزءا
فتصبح في نقص وتمسي بمثله ... أمالك معقول تُحِسُّ به رُزْءَا[1]
يُميتُك ما يُحييك في كل ساعةٍ ... ويحدوك حادٍ ما يُريد بك الهُزءا

يا هذا! أكبر الإنعام عليك كفّ فضول الدنيا عنك.

إذا رأيت سربال[2] الدنيا قد تقلّص، فاعلم أنه قد لُطِفَ بك، لأن المُنعم لم يقلّصه عليك بخلاً أن يتمزق، ولكن رفقًا بالماشي أن يتعثر، أَحْرِمْ عن الحرام بنزع مخيط الهوى لعل جذب القَدَرِ يقارنُ ضعف كسبك.

إن المقادير إذا ساعدت[3] ... ألحقت العاجز بالحازم

ويحك! تركب بحار الغَفَلات في طلب الدنيا، فإذا أمرت بخير قلت: إن وفقني.

أصمَّ الله سمع الهوى فلا يسمع إلا ما يريد، ما أحسن قولك! وما

(١) الرزء: المصيبة.
(٢) سربال: كل ما يُلبس.
(٣) بأمر الله تعالى.

أقبح فعلك!

ويحك! بادر دُرَّ الأرباح ما دام يُنثر، فسينادى عن قليل ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، أتحسب تحصيل المعالي سهلًا؟ نيلُ سهيلٍ أسهل، من أدلج في ليل الصبر فات المكّاس[1] يا من يتعب في التعبد ولا يجد له لذةً، أنت بعدُ في سواد[2] البلد، أخرج إلى البادية تجد نسيم نجد.

الاعتبار بالأعمال القلبية.

غلبت حرارات الخوف قلبَ داود عليه السلام فصار كفه كيرًا ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وقويت روحانية محمد ﷺ فنبع الماء من بين أصابعه.

أيها المصلي! طهّر سرّك قبل الطهور، وفتش عن قلبك الضائع قبل الشروع، حضور القلب أول منزل، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى، فإذا انتقلت عنها أنخت بباب المُنَاجَى، وأول قِرَى الضيف اليقظ كشف الحجاب لعين القلب، وكيف يطمع في دخول مكة منقطع قبل الكوفة.

همُّك في الصلاة متشبِّث[3] وقلبك بمساكنة الهوى متلبث، أحضر قلبك لفهم ما تتلو، ففي خلوات التلاوة تُزَفُّ أبكار المعاني، إذا كانت

(١) المكاس: جامع الضرائب.

(٢) سواد البلد: قراها وبساتينها.

(٣) متعلق.

مشاهدة مخلوق يوم ﴿أَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١] استغرقت إحساس الناظرات ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] فكيف بألباب عَلِقت فعُقِلت على الباب؟

لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن نوالك في أعقابها حادِ
لها أحاديث من ذكراك تشغلُها عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

لو أحببت المخدوم حقًّا لحضر قلبُك في الخدمة(١).

قيل لعامر بن عبد قيس: أما تسهو في صلاتك؟

فقال: أوَ حديثٌ أحبُّ إليَّ من القرآن حتى أشتغل به؟!

هيهات! مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس.

كان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من المسجد فزع لها أهل السوق فما التفت، وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته، فإذا قام يصلي تكلّموا وضحكوا علمًا منهم أن قلبه مشغول.

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم جعلت اشتغالي فيك يا منتهى شغلي

---

(١) لو أبدل عبارة الخدمة بالعبادة لكان أولى، والأظهر أنها عبارة دخيلة ومنتحلة من أهل الكتاب، فقد ذُكرت في العهد الجديد للنصارى ولا أعلم أنها قد أثرت عن السلف، والمسألة لا تعدو كونها من باب الأولى وقد استخدمها الشيخان ابن تيمية وابن القيم، وبلا شك فالمحافظة على سمت السلف حتى في عباراتهم ومصطلحاتهم أولى ثم أولى.

فمن لي بأن ألقاك في ساعة الرضا   ومن لي بأن ألقاك والكلُّ لي مَن لي؟

كان الفضيل يقول: أفرح بالليل لمناجاة ربي، وأكره النهار للقاء الخلق.

يا واقفًا في صلاته بجسده والقلب غائب، ما يصلحُ ما بذلته من التعبد مهرًا للجنة، فكيف يصلحُ ثمنًا للمحبة؟

رأت فأرة جملًا فأعجبها، فجرّت خطامه فتبعها، فلما وصل إلى باب بيتها وقف ونادى بلسان الحال: إما أن تتخذي دارًا يليق بمحبوك، أو محبوبًا يليق بدارك.

خذ من هذه إشارة إما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك[1]، أو تتخذ معبودًا يليق بصلاتك.

* * * *

عجبًا لمن رأى فعل الموت بصحبه ثم ينسى قرب نحبه، واستبداله ضيق المكان بعد رحبه، من لم ينتبه بوكزه فسينتبه بسحبه.

أين الأقران؟ وأين سلكوا؟ تالله لقد فنوا وهلكوا، اجتمع الأضداد في الألحاد واشتركوا، وخانهم حبل الأمل بعدما امتسكوا، ونوقشوا على ما خلّفوا وتركوا، وصار غاية الأماني أن لو تُركوا[2].

---

(١) قدر الطاقة وإلا فالكمال محال.

(٢) إلا من رحم الله وغفر لهم.

تالله لقد سَعِدَ من تدبّر، وسَلِمَ من الأذى من تصبّر، وهلك مؤثرُ الهوى وأدبر، فكأنكم بالفراق يا ركّاب المعبر.

يا نائمًا في لهوه وما نام الحافظ، لاحظ نور الهدى فلاحظّ إلا لمُلاحِظ، ولا تغترّ ببرد العيش فزمان الحساب قائظ، يا مُدَبِّراً أمر دنياه ينسى أُخراه فخفّ النداء اللافظ[1] وعجائب الدنيا تغني عن وعظ كلِّ واعظ.

يا من قد رأينا يدَ التفريط قد وَلِعتْ به، فأتينا للومه ولِعتبه، أما مصيرُ السلف نذير الخلف، أما مهدُ الطفل عنوان اللحد، يا من لمع له سراب الأمل فبدّد ماء الاحتياط، أتُراك ما علمت أن الأماني قمار، الورع عن الذنوب يوجب قوّة قلبية.

قال بعض السلف: ارتكبتُ صغيرة، فغضب علي قلبي، فلم يرجع إلي إلا بعد سنة.

إخواني! إطلاق البصر سيفٌ يقع في الضارب.

يا للرجال لنظرةٍ سفكت دمًا ... ولحادثٍ لم ألفَهُ مستسلمًا
وأرى السهام تؤمُّ[2] من يرمي بها ... فعلامَ سهمُ اللحظِ يُصْمي[3] من رمى

المحرّمات حرم، ونظر المملوك إلى حرم المالك من أقبح الخيانة.

---

(١) النداء اللافظ: صيحة الصور التي يُلفظ بها الأموات من قبورهم.

(٢) تؤم: تقصد.

(٣) يصمي: أصمى الرمية: أنفذ فيها السهم.

يا بني آدم! تلمّحوا تأثير ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ [طه: ١٢١] لقمة أثّرت، عَرِيَ بها المُكتسي، ونزل العالي، وبكى الضاحك، وقام المترفِّهُ يخدم نفسه، فاشتد بكاؤه، فنزل جبريل يسلّيه، فزاد برؤيته وجدُه.

رأى على الغَوْرِ وميضًا فاشتاق ... ما أجلب البرق لماء الآماق

كان آدم كلّما عاين الملائكة تصعد إلى السماء وجناحه قد قُصَّ زاد قلقه.

وأصبحت كالبازيّ المنتّف ريشُهُ ... يرى حسرات كلما طار طائر

يرى خارقات الجو يخرقن في الهوى ... فيذكر ريشًا من جناحيه وافر

وقد كان دهرًا في الرياض منعّمًا ... على كل من يهوى من الصيد قادر

إلى أن أصابته من الدهر نكبةٌ ... فأصبح مقصوص الجناحين حاسر

أعظم البلايا تردُّدُ الركب إلى بلد الحبيب يودّعون عند فراقهم الزَّمِنَ[1].

ولم يبق عندي للهوي غير أنني ... إذا الركب مرُّوا بي على الدار أشهق

يا ناقضي العهود! دوموا على البكاء، فمن أشبه أباه فما ظلم.

كانت عابدةٌ من أحسن الناس عينًا، فأخذت في البكاء، فقيل: تذهب عيناك!

(١) الزمن: المقعد.

فقالت: إن يكنْ لي عند الله خيرٌ فسيُبدلني خيرًا منهما، وإن تكن الأخرى فوالله لا أحزن عليهما.

قد علَّمَ البينُ منا البينَ أجفانا　　　تدمَى وألَّفَ في ذا القلب أحزانا

قد كنت أُشفِقُ من دمعي على بصري　　　فاليوم كلُّ عزيز بعدكم هانا

تُهدي البوارقُ أخلاف المياه لكم　　　وللمحبّ من التذكار نيرانا

من سعى إلى جناب العِزِّ بأقدام المسكنة، ووقف باب الكرم على أخمص المسألة، ووصف ندمه على الذنب بعبارة الذل، لم يعد بالخيبة.

يا معاشر التائبين! اسمعوا وصيتي، إذا قمتم من المجلس فادخلوا دار الخلوة، وشاوروا نصيح الفكر، وحاسبوا شريك الخيانة، وتلمّحوا تفريط التواني في بضاعة العمر، ويكفي ما قد مضى، فليحذر الأعورُ الحجَرَ.

إذا نُقي خاطرُ المُذكِّر من دغل هوىً، وصُفِّي معين كلامه من كدر طمع، انكشف الغطاء عن عينيه، فرأى بالفطنة قُطنة العافية.

فأما مُجتلب الدنيا بنطقه، فإنه كلما حَفَر قليب قلبه، فأمعن لاستنباط معنى طمَّ الطمع.

إذا صدر العلمُ من عامل به كان كالعربية ينطق به البدوي، وأحلى أبيات الشِّعْر ما خرج من أبيات الشَّعْر.

* * * *

إخواني! أعجب العجائب أن النُّقاد[1] يخافون دخول البَهْرَجِ في أموالهم والمُبهرِجُ آمن.

هذا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أورد في الموارد.

وهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: يا حذيفة هل أنا منهم؟

والمخلِّط على بساط الأمن.

لله أقوام شغلهم حبُّ مولاهم عن لذات دنياهم، يا حُسنَهم في الدُّجى ونورُهم قد أشرق، والحياء فائضٌ والرأس قد أطرق، والأسير يتلظّى ويترجّى أن يُعْتَق.

إذا جنّ الليل تغالَبَ النومُ والسهرُ، والخوفُ والشوق في مقدّم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمَلَ[2] العزم حَمَل على القيام، فانهزمت جنود الفتور، فما يطلعُ الفجر إلا وقد قُسِمَت السُّهمان[3] سفرُ الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّر المجاعة، النجائبُ في الأول، وحاملات الزاد في الأخير.

(١) النقاد: من يبيع النقود، والبهرج: النقود المغشوشة.

(٢) حَمَل: أغار.

(٣) السُّهمان: الغنائم.

إن كـــان رضـــاكم في سَـــهَري　　　فـــسلام الله عـــلى وَسَـــني[1]

قال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوعُ الفجر.

لو قمت في السَّحر لرأيت طريق العُبَّادِ قد غصَّ بالزحام، لو وردت ماء مدين، وجدت عليه أمَّة من الناس يسقون.

يـا بعيـدًا عـنهم! يـا مـن لـست مـنهم! ألـك نيّـة في لحـاقهم؟ أسرج كُمَيْتَك[2]، واجرُر زِمامك، يقف بك على المرعى.

يا من يستهول أحوال القوم! تنقّلْ في المراقي تَعْلُ.

قال أبو يزيد: ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى سُقتها وهي تضحك.

ما زلـت أُضْـحِكُ إبْلي كُلَّما نظرتْ　　　إلى مـن اختـضبتْ أخفافُهـا بـدمِ
من اقتضى بسوى الهنديِّ حاجته　　　أجـاب كـلّ سـؤالٍ عـنْ هـلٍ بِلَـمِ

قال أبو يزيد: كنت اثنتي عشرة سنة حَدَّادُ نفسي، وخمسين سنة مِرْآةُ قلبي، ولقد أحببتُ الله حتى أبغضتُ نفسي.

ثَوِّرْهَـــــا ناشـــــطة عقالَهَـــــا　　　قـد مـلأت مـن بَـدْنِها جِلَالَهَـا
فلـــم تـــزل أشـــواقها تـــسوقها　　　حتـى رمـت مـن الـوجي رحالهـا

---

(١) الوسن: النوم.

(٢) الكُمَيت: الحصان الأحمر.

مـا ذا عـلى الناقـة مـن غرامِـهِ لـو أنـه أنـصف أو رثـى لهـا
أراد أن تـشرب مـاء حـاجر أَرَيَّهَـا تطلـب أم كلاهـا
إن لهـا عـلى القلـوب ذِمَّـةً لأنهـا قـد عرفـت بَلْبَاهـا
كانـت لهـا عـلى الـصَّبا تحيـة أعجلهـا الـسائق أن تناهـا
وامتـدت الفـلاةُ دون خطوهـا كأنهـا قـد كرهـت زوالهـا
فعللوهـا بحـديث حـاجرٍ ولتـصنع الفـلاة مـا بـدا لهـا

* * * *

إخواني! قد دنا رحيلكم، وقد بان سبيلكُم، وسيهجركم خليلكم، وقد نصحكم دليلكم.

يـا مقيمـون ارحلـوا للـذهاب بـشفير القبـور حـطُّ الركـاب
نَعِّمـوا هـذه الأوجـه الحـسانَ فـما صـنتموها إلا لِعَفْـرِ الـتراب
والبـسوا نـاعم الثيـاب ففـي الحفرة تعرون عن جميع الثياب

كم ظالم تعدّى وجار، فما رعى الأهل ولا الجار، حلّ به الموت فحلَّ الإزرار، وأدبر عن الأوامر فأحاط به الإدبار، ودار عليه بالدوائر فأخرجه مـن الـدار، وخـلا بعملـه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] ولكـن لا ﴿فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] فانتبهوا فإنما هي جنة أو نار.

يـا مـن يُحدّثـه الأمـل فيستمع، ويخوّفـه الأجـل فـلا يرتـدع، وَصَـلَ الصالحون إلى المُنى يا منقطع، وجُوزوا على صبرهم - إي والله - لم يَضِعْ،

تلمَّحِ العواقب فتلمُّحُها للعقل وُضع، كأنه ما جاع قَطُّ من شَبِعَ.

إذا تلاقحت غروس المجاهدة تلاحقت ثمار المدائح.

أشرافُ الأوصاف أوصافُ الأشراف، وسادات العادات عادات السادات، أحرارُ الشّيم شيم الأحرار، أَقْدَمُوا على الفضائل وتأخرت، وقدّموا الأهمّ وأخّرت، الشجاعُ يلبسُ القلب على الدرع، والجبان يلبس الدرع على القلب.

وتكادُ الظُّبَا[1] لما عوَّدوها ... تنتضي نفسها إلى الأعناقِ

وإذا أشفق الفوارس من وقع ... القنا[2] أشفقوا من الإشفاق

ومعالٍ لو ادّعاها سِوَاهُم ... لزِمَتْهُ جناية السُّرَّاقِ

لوَّح للقوم فأجابوا، وكرّر الصياح بك وما تلتفت، إذا سمعوا موعظة غَرَسَت في قلوبهم نخيل العزائم وأنت لا نبت لك.

إن بينك وبين القوم كما بين اليقظة والنوم، أين مِسْكٌ من حَمْأة؟[3] وبخور من بخار؟ وصفوة من قذى؟

دخلوا على عابد، فقالوا: لو رفقت بنفسك. فقال: من الرفق أُتيت.

اسمع يا كسلان! كانوا في طلب العُلا يجتهدون، ولا يرضون

---

(١) الظُّبا: جمع ظبّة: وهي حدّ السيف.

(٢) القنا: الرماح، مفردها قناة.

(٣) الحمْأة: الطين الأسود المنتن.

بالدون، على أنهم يُعانون فيما يُعانُون، القوم مع الحق حاضرون، عن الخلق غائبون، فقولوا لعاذليهم: لمن تعذلون؟

كان بِشْرٌ لا ينام الليل، ويقول: أخاف أن يأتي أَمْرٌ وأنا نائم(١).

أتجدون يا إخواني ما أجد من ريح النسيم؟ باح مجنون عامر بهواه.

وما بحتُ حتى استنطق الشوق أدمعي   وأَذْكَرَنِي عَهْدُ الحِمى المتقادِمِ

* * * *

يا من كل يوم يقدِّم إلى القبر فارط، لا تغتر بالسلامة فربما قَبَضَ الباسط.

أُخْلُ بنفسك في دار المعاتبة، وأحضرها دستور المحاسبة، وارفع عليها سوط المُعاقبة، فإن لم تفعل خسرت في العاقبة.

لقد وعظك أمسُ واليوم، وأنت من سِنَة إلى نوم! أين العشائر؟ أين القوم؟

اشتراهم البِلى بلا سوم، لا فِطر عندهم ولا صوم، بلى بلابلُ العتاب واللوم، هذا رشاش الموج يُنذر بالقوم، ويُخبر بالحادثات إشمامُها والرَّوم(٢).

---

(١) وفي الصحيح: «أفضل القيام قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ولا يفرّ إذا لاقى» فلجسمك عليك حق، ولابد أن يأخذ حظه من النوم ليلًا وإلا أثّر عليه نهارًا، وكل الخير بحذافيره في السُّنة.

(٢) الإشمام: تحريك الشفتين بلا صوت، إشارة إلى الضمّة المحذوفة بُعيد الوقف على =

واعجبًا! بحرُ الوجود قد جمع الفنون: العلماء جوهره، والعُبَّادُ عنبره، والتجارُ حيتانه، والأشرار تماسيحه، والجُهّال على رأسه كالزَّبَدِ.

يا من يسأل عن مراتب الصالحين، ما لك ولها؟ تساوم في الراحلة وما تملِكُ ثمن نعلٍ، تطلب سهمًا من الغنيمة وما رأت عيناك حربًا.

البلايا تُظهر جواهر الرجال، وما أسرع ما يُفتضح المُدَّعي.

رأى فقير في طريق مكة امرأة فتبِعها، فقالت: ما لك؟

قال: قد سلب حُبُّك قلبي.

قالت: فكيف لو رأيت أختي؟ فالتفت فلم ير أحدًا.

فقالت: أيها الكاذب في دعواه، لو صدقت ما التفتّ.

يا مؤثرًا ما يفنى على ما يبقى، هذا رأي طبعك، هلّا استشرت عقلك لتسمع أصحّ النصائح، من كان دليله البوم كان مأواه الخراب.

ويحك! اعزم على مجنون هواك بعزيمة، فرب شيطان هاب الذكر، تلمّح غِبَّ الخطايا لعلّهُ يكفُّ الكَفَّ، لا تحتقرن يسير الطاعات فالذود إلى الذود إبل، وربما احتيج إلى عويد[1] منبوذ، لا تحتقرن يسير الذنب فإن

= الكلمة، ولا يكون إلا على الضم.

الرَّوْم: إسماعُ الحركة للقريب دون البعيد، ولا يكون إلا في الكسر أو الضمَّة.

(١) عويد: تصغير عود.

العشب الضعيف يُفتل منه الحبل القوي، فيختنق به الجمل المُغتلم[1] أو ما نفذت في سدّ سبأ حيلةُ جُرَذ[2] من عرف شرف الحياة اغتنمها، من علم أرباح الطاعات لزِمها، وكم غرقت في بحر سَوْفَ سفينة نفس!

يا هذا! أنت أجير وعليك عمل، فإذا انقضى الشُّغل فالبس ثياب الراحة.

قال رجل لعامر بن عبد قيس: كلّمني، فقال: أمسك الشمس.

دخلوا على الجنيد عند الموت وهو يصلي، فقيل له: في هذا الوقت؟ فقال: الآن تطوي صحيفتي.

رحل القوم يا متخلّف، وسبقوك بالعزائم يا مسوّف، قف على الآثار وقوف متلهّف، وصح بالدمع: سر يا متوقِّف.

* * * *

إخواني! المفروحُ من الدنيا هو المحزون عليه، وبقدر الالتذاذ يكون التأسف، ومن فعل ما شاء لقي ما ساء.

الدنيا فلاة فلا تأمن الفلا[3] لا تسكن إليها وإن أظهرت لك الولا، فلينظر الإنسان يمنة فهل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة؟

(١) المغتلم: الهائج بسبب شدة الشهوة.

(٢) الجُرَذ: ذكر الفأر.

(٣) الفلا: الانقطاع.

أما الربع العامر فقد دَرَس، وأما أَسَدُ المهات ففَرَس[1] وأما الراكب فكبت به الفرس، وأما الفصيح فاستبدل الخرس، وقفت سفينة نجاتهم لأن البحر يبس.

آهٍ لنَفْسٍ رَفَلَت من الغفلة في أثوابها، فثوى بها الأمر إلى عدم ثوابها، آهٍ لعيون أغشاها الأمل فسرى بها إلى سرابها، آهٍ لقلوب قَلَبَها الهوى عن القرآن إلى ربابها فربابها[2].

يا مغرورين بحبَّة الفخّ! ناسين خنق الشَّرَك، تذكروا فوات المُلتقَط مع حصول الذبح ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣].

الحذر الحذر من صياد يسبق الطير إلى مهابطه بفخاخ مختلفة الحِيَل، قَدِّروا أنكم لا ترون خيط فخّه، أما تشاهدون ذبائحه في خيطه ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]؟

يا قلبُ كيف علقت في أشراكهم ... ولقد عهدتُك تُفْلِتُ الأشراكا
لا تشكوَنَّ إليَّ وجدًا بعدها ... هذا الذي جرّت عليك يداكا

ألا يصبر طائر الهوى عن حبّةٍ مجهولة العاقبة! وإنما هي ساعة ويصلُ إلى برج أمنه، وفيه حبات.

---

(١) فرس: افترس وصاد.

(٢) ربابها: الأولى: الربابة نوع من المعازف، والثانية: من الزيادة.

فــإن حننــتَ للحِمــى وطيبــه   فبالغـضا مـاءٌ وروضــات أُخَـرْ

فيا حاملي كتب الأمانة! أكثرتم على غير الجادّة.

قطـــاةٌ غرّهـــا شَرَكٌ فباتـــت   تجاذبــه وقــد علــق الجنــاح
فــلا في الليــل نالــت مــا تمنّــت   ولا في الــصبح كــان لهــا بــراح

لو صابرتم مشقة الطريق لانتهى السفر، فتوطّنتم مستريحين في جنّات عدن.

يا مهملين النظر في العواقب! لا ترموا بأسهم العيون ففيكم تقع. رُبَّ راعي مقلةٍ أهملها، فأُغير على السّرح، من رأى الحقائق رأى عين غض طرفه.

يا هذا! اعرف قدر لطف الله بك[1] وحفظه لك، وإنما نهاك عن المعاصي صيانة لك، لا لحاجته إلى امتناعك، لمّا عرفته بالعقل حرّم الخمر لأنها تستره، ومثلُ يوسف لا يُخبّأْ.

يا متناولًا للمسكر! لا تفعل، يكفيك سُكْرُ جهلك، فلا تجمع بين خليطين، اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه، وشكرك لمن لا تَغُبُّك[2]

(١) في الأصل (اعرف قدر لطفنا بك) وهذا الأسلوب استخدمه المصنف كثيرًا ولا أرى له وجهًا مستساغًا، بل لا يخلو من سوء أدب مع الله تعالى، فمهما وصل الحال بالكاتب فينبغي أن لا يتجاوز وإن كان قصده سليمًا.

(٢) الغُب: الانقطاع.

نِعَمه، وطاعتك لمن لا ترجو خيرًا إلا منه، وبكاءك على قدر ما فاتك منه، وارفع إليه يد الذُّل في طلب حوائج القلب تأتي وما تشعر.

يا هذا! عندك بضائع نفيسة، دموع ودماء وأنفاس وحركات وكلمات ونظرات، فلا تبذلها فيما لا قَدْرَ له، أيصلحُ أن تبكي لفقد ما لا يبقي؟ أو تتنفس أسفًا على ما يفنى، أو تبذل مهجة لصورة عن قليل تُمحى، أو تتكلم في حصول ما يشين ويتوى[1]؟

يا هذا! إن لم تقدر على كثرة العمل فقف على باب الطلب، تعرّض بجذبة من جذبات الحق، ففي لحظة أفلح السحرة.

طريق الوصول صعبة، وفي رجلك ضعف، ويحك! دم على السلوك تصل، أوّلُ النخلة السَّحُوق[2] فسيلة، بداية الآدمي الشريف مضغة، ثمن المعالي جَدُّ الطالب، والفتور مُزمن.

* * * *

يا من يرحل في كل لحظة عن الدنيا مرحلة، وكتابُه قد حوى حتى قدر خردلة، كن كيف شئت، فبين يديك الحساب والزلزلة، واعجبًا من غفلة مؤمن بالجزاء والمسألة، أيقين بالنجاة أم غرورٌ وبَلَه؟

تبني وتجمع والآثار تندرسُ وتأملُ اللبثَ والأرواح تُختلس

(١) يتوى: يهلك.

(٢) السحوق: الطويلة.

تالله لقد كَشَفت الغِيرُ ما انسدل، فلم يبق مراءٌ ولا جدل، يا من عمره كزمان الورد، يا شمس العصر على القصر، قد بلغ مركبك ساحل الوفاة، ووقف بَعِيرُكَ على ثنية الوداع، وبقي من ضوء الأجل شفق، فاستدرك باقي الشعاع قبل غروب الشمس.

أيُنفقُ العمر في الدنيا مجازفةً   والمالُ ينفق فيها بالموازين

البدار البدار قبل الفوت، الحَذار الحذار قبل الموت، ما في المقابر من دفين إلا هو متألم من سوف.

يا هذا! متى تبت بلسانك، وما حللت عُقَدَ الإصرار من قلبك لم تصحّ التوبة، يا هذا! إذا لم يتحقق قصد القلب لم يؤثر النطق باللفظ، إن المكره على اليمين لا تنعقد يمينه «**إنما الأعمال بالنيات**»[(١)]، وقلبُك كله مع الهوى «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب**»[(٢)].

أكثر الأمراض أمراض الهوى، وأكثر القتلى بسيفه، أرباب الهوى أطفال في جُحُور العادات وإن شابوا.

واعجبًا! الظاهر غير طاهر، والباطنُ باطل، منامُ المُنى أضغاث أحلام، رائد الآمال كذوب، العجز شريك الحرمان، التفريط مضارب

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

الكسل.

ظللـتُ أكُـرُّ عليـه الرُّقَـى وتـأبى عريكتـه[1] أن تلينـا

يـا هـذا! المجاهـدة حـرب، لا يـصلح لهـا إلا بَطَـلٌ، كُـن قَـيِّماً عـلى جوارحك، وفِّها الحظوظ، واستوف منها الحقوق.

* * * *

إخواني! أيام العافية غنيمة باردة، وأوقات السلامة لا تُشبهها فائدة، فتناول ما دامت لديك المائدة، فليست الساعات الذاهبات بعائدة.

مـضى أمـسك المـاضي شـهيدًا مُعَـدلًا[2] وأتبعـه يـومٌ عليـك شـهيدُ

فـإن تـك بـالأمس اقترفـت إسـاءةً فبـادر بإحـسان وأنـت حميـد

ولا تُبـق فعـل الـصالحات إلى غـدٍ لعـل غـدًا يـأتي وأنـت فقيـدُ

كـأنكم بالقيامـة قـد قامـت، وبـالنفس الأمّـارة بالـسوء قـد لامـت، وانفتحت عيون طالما نامت، تحيّرت قلوب العصاة وهامت.

غـدًا تُـوَفَّى النفـوس مـا كـسبت ويحـصدُ الزارعـون مـا زرعـوا

إن أحـسنوا أحـسنوا لأنفـسهم وإن أسـاءوا فبـئس مـا صـنعوا

(١) عريكته: طبيعته.

(٢) شهيدًا مُعدلًا: أي شاهدًا عدلًا.

يا هذا! إنك لم تزل في حَبْسٍ، فأول الحُبُوس: صلب الأب، والثاني: بطن الأم، والثالث: القِمَاط[1]، والرابع: المكتب[2]، والخامس: الكدُّ على العيال، والسادس: الموت، والسابع: القبر، فإن وقعت في الثامن[3] نسيت مَرَارَةَ كلِّ حبس.

يا هذا! ادخل حبس التقوى باختيارك أيامًا، ليحصل لك الإطلاق في الأغراض على الدوام، ولا تؤثرنّ إطلاق نفسك فيما تحب، فإنه يورث حبس الأبد في النار.

قوي حَصْرُ الخوف عند المتقين فاشتد كربهم، فكلّما هب نسيمٌ من الرجاء ولَّوا وجوهم شطره.

يا طربًا لنفحة نجديّةٍ — أُعَدِّلُ حرَّ القلب باستبرادها
وما الصَّبا ريحيَ لولا أنها — إذا جَرَت مرّت على بلادها

عبارة النسيم لا يفهمها إلا الأحباب، وحديث البروق لا يروق إلا للمشتاق.

العاقل غائب عند ذكر الدنيا، وحاضر عند ذكر الأخرى، ومن سمع ذكر الحبيب ولم يَثُر قلبه عن مستقرّه فهو مدّع.

* * * *

(١) القماط: ما يُشد به الصبي في المهد، وتسميه العامة «المهاد».
(٢) المكتب: الكتاتيب والمدارس.
(٣) لعله أراد موقف الحساب.

آهٍ لنفس أقبلت على العدو وقبّلتَ، وبادرت إلى ما يؤذيها من الخطايا وعجّلت، من لها إذا سئلت عن قبيحها فخجلت؟ وَسُلَّ عليها سيف العتاب فقُتلت؟

يا مُتعبًا نفسه بالحرص، والقدر ما يتغير، الراضي مُرفَّهٌ، كم غرقت سفينةُ مُهجةٍ في لُجَّة الحرص، الطمع يخنق العصفور قبل الفخ، لَمَّا قنعت العنكبوت بزاوية البيت سيق لها الحريص وهو الذباب، فصار قوتًا لها، وصوّت به لسان العبرة: رب ساعٍ لقاعد.

تُرسِلُ قلبك مع كل مطلوب من الهوى، ثم تبعث وراءه وقت الصلاة ولا يلقاه الرسولُ، فتصلي بلا قلب.

يا من قد فقد قلبه لا تيأس من عَوْدِه.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كل الظن ألّا تلاقيا

الهوى قاطن[1] والصواب خاطر، وقلعُ القاطن صعب، وإمساك الخاطر أصعب، الهوى مُتديّر[2] والمواعظ نزّالة[3] ومع مُدارة الجمل تصل.

لمّا تزينت زخارف الدنيا، تواثبت جُهّال الطبع لاتّباع الهوى، فبُعِثَ

(١) قاطن: مقيم، أما المسافر فهو الظّاعن.

(٢) متديّر: متخذ دارًا.

(٣) نزالة: النزيل: الضيف.

العقل كافًّا لهم، فأقام عندهم موكلًا بهم، وكلّما زاد في قيودهم فكّوا السلاسل، وكلّما تلا عليهم النصائح، أسمعُوا القبائح.

واعجبًا للبقاع تبكي على أناس وتبكي من آخرين.

العبارات حظ النفوس، والإشارات قوت القلوب(١).

* * * *

إخواني! ألا ذو سمع وبصر، يعلم أن الأعمار فيها قِصَر، ألا مُتلِّمحٌ ما في الغير من العِبر، ألا ذاكرٌ بيت التراب والمدر.

تَنَبَّهْ فإن الدهر ذو فَجَعَاتٍ	وشملُ جميعٍ صائرٌ لشتاتِ
هل المرء في الدنيا الدنية ناظرٌ	سوى فَقْدِ حِبٍّ أو لقاءِ مماتِ
سيُسقى بنو الدنيا كؤوس حتوفهم	إلى أن يناموا لا منام سُباتِ
وما فُوجئت نفسٌ ببلوى وقد رأت	عظاتٍ من الأيام بعد عظاتِ
إذا بغتت أشياء قد كان مثلها	قديمًا فلا تعتدَّها بَغَتاتِ
وأعقب من النوم التَّنَبُّهَ راشدًا	فلابد للنوّام من يقظات

يا من يجول في المعاصي قلبُه وهمّه! يا معتقدًا صحته فيما هو سقمه! يا من كلما طال عمره زاد إثمه! أين لذة الهوى؟ رحل المطعوم وطعمه، يا

(١) مبدأ الإشارات في المحبة سائغ ولكن منتهاها ممنوع لأنه مفضٍ إلى ما ينعتونه بالعشق الإلهي وهذا سوء أدب مع الله تعالى، بل قد تصل إلى اعتقاد وحدة الوجود عند بعض المخذولين.

من سيجمعه اللحد عن قريب ويضمُّهُ، كيف يُوعظ من لا يعظه عقلُه ولا فهمه؟ كيف يُوقظ من قد نام قلبه لا عينه ولا جسمه؟

واعجبًا لبهيم يتشبه بالناس، ولإنسان يَتَشَبَّهُ بالبهيم، كل هذا سببه الهمة، لا يطمعن البطّال في منازل الأبطال، إن لذة الراحة لا تُتناول بالراحة، من زرع حصد، ومن جدّ وجد.

وكيف يُنال المجدُ والجسم وادعٌ وكيف يُحازُ الحمدُ والوفرُ[1] وافرُ

أيُّ مطلوب نيل من غير مشقة؟ وأي مرغوب لم تبعُد على مؤثره الشُّقَّةُ؟ المال لا يحصل إلا بالتعب، والعلم لا يُدرك إلا بالنّصب، واسم الجواد لا يناله بخيل، ولقب الشجاع بعد تعب طويل.

لا يُدرِكُ المجدَ إلا سيّدٌ فطنٌ لما يشقُّ على السادات فعّالُ
لولا المشقة ساد الناس كلُّهُمُ الجود يفقر والإقدام قتّالُ

يا أعجمي الفهم! متى تفهم؟ يا فرحًا بلذةٍ عقباها جهنم! ستدري متى تبكي ومتى تندم؟ يا عاشق الدنيا كم مات مُتيّم!

إخواني! اليوم رجاؤنا للرحمة قوي، فكيف نصنع غدًا إن ضَعُفَ؟

يا صَبا نجدٍ وبانات الغضى ارفُقا بي في التَّثَنِّي والهبوب

يا ركب التوبة! إن تزودتم فالتقوى، واهًا لرسالة متلهّفٍ تحتوي على

---

(١) الوفر: المال الكثير، وافر: مخزون.

حسرة مُحْصَرٍ.

فعندي زفيرٌ ما ترقّى إلى الحشى وعندي دموع ما بلغن المآقيا

سيدي إن لم أصلُحْ للرضا فالعفوَ العفوَ.

* * * *

إخواني! أما يُنبّه على استعداد الزاد سلبُ الآباء وأخذ الأجداد؟ أما يُحرّك إلى التَّيَقُّظِ ونفي الرقاد عَكْسُ المشتهى وردُّ المراد؟

لنا كل يوم دمعة خلف ذاهب ومُستَهلَكٌ بين النَّوى والنوائب[1]

ونأمل من وعد المنى غيرَ صادقٍ ونأمن من وعد الردى غيرَ كاذب

نُراع إذا ما شيك أخمصُ بعضنا وأقدامُنا ما بين شوك العقارب

نعم إنما الدنيا سمامٌ لطاعم وخوفٌ لمطلوبٍ وهمٌّ لطالب

وإنا لنهواها مع الغدر والقِلى[2] ونمدحها معْ علمنا بالمعائبِ

أيُّ مطمئن لم يُزعج؟ أي قاطن لم يُخرج؟ فرسُ الرحيل لنا مسرج. شرطُ المقام الرحيلُ، وقد تقاضى بشرطه، أما لك عبرة في رفع الزمان وحطه[3] أما ترى رقوم المنايا مكتوبة بخطه، هلّا تصوّر العاصي ساعة إنزاله إلى القبر وحطّه.

---

(١) النوى: البعد، النوائب: المصائب.

(٢) القِلى: البغض.

(٣) بإذن الله تعالى، ونسبتها للزمان لأجل الظرفية الزمانية لا الفعليّة.

هــب البعــث لم تأتنــا رُسْــلُهُ وجاحِمَــــةُ النــــار لم تُــــضرمِ
ألــيس مــن الواجــب المــستحقِّ حيــاءُ العبــاد مــن المُــنعم؟!

أقلُّ نعمه أن أوسع عَرْصَة[1] الوجود، لئلا يضيق نَفَسُ النَّفَس بالحصْر، وأجرى بحر الهواء في جوف الفضاء يُقتسمُ بمكاييل الخياشيم، فيصل بالعدل إلى ذوات الذوات، واعجبًا للغافلين عن هذا المنعم!

بماذا اشتغلوا؟ أجهلًا بوجوده؟ فهو أوضح من ضحى، أم ميلًا إلى الدنيا؟ فهي غادرة، إن سَلِمت فتنت، وإن تلفت أهلكت!

وقع نملٌ على نيلوفر[2] منتشر الورق، فأحب ريحه فأقام، فلمّا تقبّض الورقُ وغاص هلك العاشق.

إخواني! إياكم والذنوب، فإنها أذلت عزير ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ [البقرة: ٣٤] وأخرجت مقطع ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ [البقرة: ٣٥] ولولا لطف ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ [البقرة: ٣٧] كان العجب، استراح آدم إلى بعض العناقيد، فإذا به في العنا[3] قيد.

شَمَتَ به إبليس حين نزل، وما علم أن نزوله إلى دار التعبد صعود، كنزول الغائص خلف الدر صعود، رأى في بدايته طينًا قد صلصل، وبذارٍ قد عَفِنَ، ونسي أنه سَتَهْتَزُّ طاقاته في ربيع ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ [البقرة: ٣٧].

---

(١) عرصة: الفناء الواسع بين الدور جمعها عِراص وعَرْصات.

(٢) نيلوفر: نبات ذكي الرائحة.

(٣) العنا: التعب والمشقة.

ويلك يا إبليس! ما جرى على آدم هو المراد من وجوده **«لو لم تذنبوا»**[1].

قدحٌ أُريد كَسْرُهُ فسُلِّم إلى مرتعش.

فلولا غليل الشوق أو لوعة الأسى لما خلقت لي أعينٌ وجفونُ

إذا سمعت ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ [البقرة: ٣٨] فَلَكَ خَلَقَهَا، إنما أُخرجتَ إلى مزرعة المجاهدة، فإذا حصدت فعُد.

إن قيل لك مرة ﴿ٱهۡبِطۡ﴾ [هود: ٤٨] ففي كل يوم تُنادَى ألف ألف مرّة ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] إن أُبعدت عن الحضرة مرة، فزيارة الحبيب ما تنقطع **«هل من سائل»**[2].

يا ابن آدم! قد ذقت حلاوة الذنب، وتطعّمت مرارة الندم، فهل وفّت هذه بتلك؟

أين لذاتك إذا نزل الموت؟ كيف حسراتك إذا وقع الفوت؟

يا صبيان التوبة! اشكروا من نجّاكم بالإنابة ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ

---

(١) رواه أحمد ومسلم، ولفظه عنده «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».

(٢) رواه أحمد ومسلم ولفظه «إن الله يُمهل حتى إذا ذهب ثُلُث الليل الأول نزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من داع؟ حتى ينفجر الفجر».

ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] تذكّروا عظمة من عاهدتم ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النمل: ٩١].

لا تزدروا أثواب الزهد فعليها أنوار المهابة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النمل: ٦] لا يصعبن على الخيل تضميرُها، فستفرحُ به يوم السباق.

إذا قال رفقاؤك: امشِ معنا ساعة، فقل: أقعدني الخوف.

أيها التائب! قل لقلبك الراعي في رياض الهُدى، احذر من لفتةٍ إلى خضراء دِمَنِ الهوى(١) فمرعاك أطيب، وشرابك أعذب، نسيم الريح يقوّي الروح ما لم يختلط به بخار رَدي، كذلك كلام المُذكرين، إذا سلم من بدعة كان قوتًا للنفس، وإن مازجه هوى، هوى بصاحبه إلى العلل.

* * * *

يا دار الأحباب أقوى(٢) جديدُها، أين أُسودُها؟ أم أين غِيدُها؟(٣) مرّت ظباء الهوى فمن يصيدُها؟ تساوى في القبور مواليها وعبيدها.

قف يا حبيبي بالرسوم، وانظر نسخ النسيم بالسَّموم، وتبديلَ الأفراح بالغموم، هيهات إن الدنيا لا تدوم، إنها على قتلك تحوم.

---

(١) خضراء الدمن: ما ينبت على المزامل والروث من عشب.

(٢) أقوى: خلا.

(٣) غيدها: جمع غيداء وهي المرأة الناعمة.

أيها الباكي على أقاربه الأموات، ابك على نفسك فالماضي قد فات، وتأهّب لنزول البلايا وحلول الآفات، وتذكر قول من إذا ذكرك قال: مات. كأنك بما أتى الماضين قد أتاك، وقد صاح بك نذيرُهم، أنت غدًا كذاك، إنما اليوم لهذا وغدًا لذاك.

أنا في القبر وحيدٌ ... قد تبرَّأ الأهلُ منّي
أسلموني بذنوبي ... خبتُ إن لم تعفُ عنّي

آه للدنيا مَلَكت القلبَ حين مُلِكت، وأبقْت الهمَّ ثم أَبِقَتْ، لو تأملتم عيب الدنيا لهان طلاقها، كم تألفت بحلو مذاقها ثم أتلفت بمر فراقها.

إخواني! عيون يقينكم رَمِدَة، والفكر تبريد[1]، من أيقن بالموت كيف يفرح؟ من عَلِمَ قُرب الحساب كيف يلهو؟ من عرف تقليب القلوب كيف يأمن؟

كان سفيان الثوري من شدة خوفه يبول الدم.

إن لم تكن مع القوم في السَّحَر، تلمّحْ آثار الحبيب عليهم وقت الضحى، ترى في صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار، وجوه زهاها الحسنُ أن تترفَّعَا.

وما تلوّمَ جسمي عن لقائكمُ ... إلا وقلبي إليكم شَيِّقٌ عَجِلُ
وكيف يقعد مشتاقٌ يحركه ... إليكم الحافزان الشوقُ والأمل

* * * *

(١) تبريد: من برّد عينه بالبرود كحَلها به تكحيلاً.

سبحان من فاوت بين القلوب، فمنها ما لا يصلحُ إلا لخدمة الدنيا، ومنها ما لا يصلح إلا للتعبد، ومنها روحاني مشغول بمحبة الخالق(1).

أروح وقد ختمتُ على فؤادي ... بحبكَ أن يحل به سواكا
فلو أني استطعت غضضت طرفي ... فلم أبصر به حتى أراكا
أُحبك لا ببعضي بل بكلي ... وإن لم يُبق حبك لي حراكا
ويقبحُ من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاكا
وفي الأحباب مختصّ بوجد ... وآخر يدَّعي معه اشتراكا
إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى
فأما من بكى فيذوب شوقًا ... وينطق بالهوى من قد تباكى

النهار يزيد في كُرَبِ المحب، والليلُ يروّحه السَّحَر، روضةٌ نجديّةٌ يجد فيها المحب ضالَّةَ وجده، شراب المناجاة يروي ظمأ المحبين.

يذكرني مَرُّ النسيم عهودَكُم ... فأزداد شوقًا كلما هبت الريحُ

كلما قوي حامل المحبة، زيد في حِمله «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»(2).

فَوَرانُ قِدْر القلب من قَدْرِ شدة الإيقاد.

---

(1) أي أن كل حياته لله وهذا محض الإيمان.

(2) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

كان نبيُّنا ﷺ يصلّي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء[1] كان الوحي إذا نزل عليه وهو على ناقته أثَّر فيها، فربَّما وَتِدَتْ بيديها في الأرض، وربما بركت لثقل الوحي[2].

إيهٍ أحاديث نعمان وساكنه　　　إن الحديث عن الأحباب أسمارُ
أفتش الريح عنكم كلما نفحت　　　من نحو أرضكم نكباءُ معطارُ

❋❋❋❋

يا هذا! اشتغلت بفنون تعليلك عن ذكر تحويلك، وستُسلب من أخيك وخليلك، وتُسأل عن تخبيصك وتخبيلك.

كأنك بالمضي إلى سبيلك　　　وقد جدّ المجهِّزُ في رحيلك
وجيء بغاسل فاستعجلوه　　　بقولهمُ له افرغْ من غسيلك
ولم تحمل سوى كفن وقطن　　　إليهم من كثيرك أو قليلك
وقد مدّ الرجال إليك نعشًا　　　فأنت عليه ممدود بطولك
وصلّوا ثم إنهمُ تداعوا　　　لحملك في بكورك أو أصيلك
ولما أسلموك نزلت قبرًا　　　ومن لك بالسلامة في نزولك
أعانك يوم تدخله رحيمٌ　　　رؤوف بالعباد على دخولك
فسوف تجاور الموتى طويلًا　　　فدعني من قصيرك أو طويلك
أخي إني نصحتك فاستمع لي　　　وبالله استعنت على قبُولك

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه النووي.

(٢) رواه أحمد والطبراني.

ألـست تـرى المنايـا كـل يـوم   تـصيبُك في أخيـك وفي خليلـك

يا هـذا! لقد حَمَلت على نفسك ما يثقلُها، فحسبك ما قد مضى، أتقتلُها؟ يا طول سَفْرَةٍ الموتُ أَوَّلُها.

العلم والعمل توأمان أُمُّهما علو الهمة.

أيها المعلم تأنّ على المبتدي ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] فللعالِمِ رسوخ وللمتعلم قَلَقٌ.

ويا أيها الطالب تواضع في الطلب، فإن التراب بَيْنَا هو تحت الأخمص صار طهورًا للوجه، السهر مرقى إلى أطيب مرقد.

الهُـونُ في ظـلّ الهُوينـا كـامنٌ   وجلالةُ الأخطار في الأخطار[١]

ليس من غاص في قرار البحر حتى وقع بالدُّر اليتيم كمن قعد على الساحل بجمع الصَّدَف.

* * * *

كم تُنذر الدنيا ولا نسمع! وكم تُؤيس مُحبَّها من وصلها ويطمع! فالعجب من فطِنٍ غرَّهُ سرابٌ بلقع. الدنيا دارُ كَدَرٍ، بذلك جرى القدر، فإن صفا عيشٌ لحظةً نَدَرَ، ثم عاد التخليط فيذرُ الورود فيها كالصَّدَر[٢]، ودم قتيلها هَدَر.

(١) الأخطار الأولى: الشرف والرفعة، الثانية: الإشراف على الهلاك.

(٢) الورود: المجيء للماء، الصَّدَر: الرجوع عن الماء.

المـــرء مـــن دنيـــاه في كَلَـــفٍ ... ومالُـــه فيهـــا إلى التَّلَـــفِ
ولكـــل شيء فائـــت خلـــفٌ ... وحياتنـــا فـــوتٌ بـــلا خَلَـــفِ

لله درُّ أقوام علموا قرب الرحيل، فهيؤوا آلة السفر، وهوّنوا بالدنيا فقنعوا منها بما حضر، واستوثقوا بقُفل التقوى من أذى النطق والنظر، مالك خبرٌ بما لهم ولا عندك منهم خبر، قاموا في الجِدِّ وقعدْت، وسهروا في الدجى ورقدت، هذا طريقهم فأين السالك؟ أترضى بالتأخر عنهم؟

وأثقلُ محمولٍ على العين ماؤها ... إذا بـان أحبـابٌ وعـزَّ إيـابُ

نام العلاء بن زياد ليلة عن ورده فَجُذِبَ من نومه بناصيته وقيل له: قم إلى صلاتك، فما زالت تلك الشعرات قائمةً باقي حياته ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣].

تالله ما تُعشق الأماكن لذاتِها، بل لسالف لذّاتها، لك يا منازل في القلوب منازل.

ومـا شَرَقـي بالمـاء إلا تـذكّرًا ... لمـاءٍ بـه أهـلُ الحبيـب نـزولُ

* * * *

يا عجبًا لك! تتسمى باسم تاجر، وتُخاصم على الدرهم وتُشاجر، وتُصابر لربح القيراط الهواجر، وتغضبُ لأجل الحبة وتُهاجر، وترضى في أفعالك باسم فاجر، أما لك من عقلك ناهٍ ولا زاجر؟ يا من نومه كثير

وانتباهــه نــادر! إن دُعيــتَ إلى التوبــة ســوَّفْتَهَا، وإن قمــت إلى الــصلاة سففتها[1]، وإن لاح وجه الدنيا تَرَشَّفْتَهَا، تالله لو علمتَ جنايتها لعفتها، أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها، آهٍ لبضائع عُمر بذرتَ فيها وأتلفتها، كم تعِدُ بالإنابة وكل الوعود أخلفتها.

ابكِ لما بك، واندب في شيبك على شبابك، وتأهب لسيف المنون فقد علق الشبا[2] بك.

قــد كــان عمــرك مــيلًا   فأصــبح الميــل شــبرا
وأصــبح الــشبر عُقْــدًا   فــاحفر لنفــسك قــبرا

يا محبوسًا في سجن هَوَاهُ متى تتخلص؟ لو عرفت أَلِفْتَ، لله أحبابٌ لهم ألبابُ هم اللُّباب[3] شغلهم على الدوام المحراب، حاضرون معكم بالأبدان وبالقلوب غُيَّاب.

ما نال الصالحون ما نالوا إلا بترك ما نطلبه وما نالوا، كانت هممهم في طلب الفضائل تغلي في القلوب غليان ما في القدور، تخايل القوم لذَّة الثواب فسهُلت عليهم مرارات الصبر، وتصوّروا خلود الأبدان فهان عليهم بذل النفوس، جَدُّوا في الجدّ فما سكنوا حتى سكنوا الجنة، فلو رأيتهم في الجنان يسرحون، منطلقين في أغراضهم يمرحون، لا يدرون بأي

(١) سففتها: يقال: سَفَفَ العمل: لم يُحْكِمْهُ.
(٢) الشبا: جمع شباه وهي من كل شيءٍ حَدُّ طَرَفِهِ.
(٣) اللُّباب: الخالص من كل شيء.

مطلوب يفرحون، بالنجاة من النيران؟ أم بالخلود في الجنان؟ أم بالخيرات الحسان؟ أم برضى المليك الديّان؟ لقد نالوا من المُرَادِ ما لم يكن في الحسبان، من تلمّح جَوَلَانَ مُضَمَّرِ الصابرين رأى من قوّة قرّة العين ما لا يدخل تحت حدّ قياس، وجملة المبذول من الثمن ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

* * * *

من ركب الهوى هوى به، والنفس إذا استعملت التقوى تقوى به.

وكم ذنب أتيتَ على بصيرة	وعينُك بالذي تأتي قريرة
تُحاذر أن تَراك هناك عينٌ	وإنَّ عليك للْعَينُ البصيرة
وكم من مَدَخَلٍ لو متَّ فيه	لكنت به نَكَالاً في العشيرة
وُقيت السوء والمكروه منهُ	ورُحت بنعمةٍ فيه ستيره

يا متردّدًا في التوبة! سارع ولا تقف، إلى متى أعمالك كلُّها قباح؟ أين شارب الراح(١) راح إلى القبر تسفي عليه الرياح، حلّ للبلى وللدود مباح، لهما اغتباقٌ به ثم اصطباح، عليه نطاق من التراب ووشاح. هذا حادي الرحيل قد استعجلك، فالبدار البدار، خلّ كسلك ودع التواني فالتواني قد قتلك.

يا معدودًا مع الشِّيب في الصبيان! يا واقفًا في الماء وهو ظمآن! يا عارفًا بالطريق وهو حيران! أما وُعظت بآي القرآن؟ أما زُجرت بنأي

(١) الراح: الخمر.

الأقران؟ أما تعتبر بصروف الزمان؟ أتُعمّر المنزل وعلى الرحيل السكّان؟ أما يكفي وعظ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢١] تسافر ببضائع الأمانة وما تنزل إلّا في خانٍ من خان[١]، أفعالك كلها مكتوبة فيا ليت ما كان ما كان[٢]؟ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠].

نُـــرَاعُ إذا الجنـــائزُ قابلتنـــا ... ونـسكنُ حـين تَخْفَـى ذاهبـاتِ
كروعــةِ ثُلَّــةٍ لظهــور ذئــب ... فلــما غــاب عــادت راتعــاتِ

يا ابن آدم! أنت بين ذنب لا تدري أغُفر؟ وحَسنة لا تدري أقُبلت؟ فأين الانزعاج؟ يا أطفال الهوى! أين أنتم والرجال؟

يا هذا! إذا هممت بخير فبادر لئلا تُغلب، وإذا هممت بشرّ فسوّف هواك لعلّك تَغْلِب[٣] ثقّف نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك، فإن سياسة الأخلاق مراقي المعالي.

قال بُزْرَ جَهْمَر[٤]: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه، حتى من الكلب والهرّ والغراب.

---

(١) خان الأولى: النزل والفندق، والثانية: من الخيانة.

(٢) ما كان الأولى: الذي كان. والثانية: لم يكن.

(٣) كما قيل:

وإذا تَــشَاجَرَ في فــؤادك مَــرَّةً ... أمــران فاعمــد للأعَــفِّ الأَجْمَــلِ
وإذا هممــت بــأمر ســوء فاتئــد ... وإذا هممــت بــأمر خــيرٍ فاعجــلِ

(٤) بزر جمهر: وزير كسرى أنوشروان، وكان حكيمًا.

قيل: ما أخذت من الكلب؟

قال: ذبُّه عن حريمه، وإلفُهُ لأهله.

قيل: ما أخذت عن الهر؟

قال: رفقها عند المسألة، ولينُ صياحها.

قيل: ومن الغراب؟

قال: شدة حذره.

* * * *

إخواني! من عرف ما بين يديه لم يؤثر الهوى ولم يلتفت إليه.

كم فَرحٍ بشهر وإهلاله، مُتَهَلِّلٍ لرؤية هلاله، اختطفه الموت في خِلَالِهِ، كم مائلٍ إلى جمع ماله، تركهُ تركةً ومرّ بأثقاله، هل رحم الموت مريضًا لضعف أوصاله؟ هل ترك كاسبًا لأجل أطفاله؟ وكم أَيْتَمَ طفلًا صغيرًا ولم يُباله؟

ألـيس إلى الآجـال نَهْـوي وخلفنـا ... من الموت حادٍ لا يُغِبُّ عجولُ[1]

بينا محب الدنيا في اختيال ومَرَح، وكلما جاء بابًا من أبوابها فُتح، قدح زناد العمر في حرّاق القِدَح.

بيـنما المـرء غافـلٌ إذ أتـاه ... مـن يـد المـوت سـالبٌ لا يُـصدُّ

(١) لا يُغِبّ: لا ينقطع.

إلى كم تعصي وتتمرد؟ وأقبح من قبيحك أنك تتعمّد، تخلّص من أسر الهوى فإلى كم مقيّد؟

يا ليت شعري ما ادخرتَ ليوم بؤسك وافتقارك
فلتنزلنَّ بمنزلٍ تحتاج فيه إلى ادخارك

قيل للحسن: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهًا؟

قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

رحم الله أعظُمًا طالما نصبت وانتصبت، جُنَّ عليها الليلُ فلمّا تمكن وثَبَتَ وثَبَتْ، إن ذكرت عدله رهبت وهربت، وإن تصوّرت فضله فرحت وطربت، حسبك أن قومًا موتى تحيا بذكرهم النفوس، سلامُ الله على تلك القبور، ورضوان الله حشوُ تلك اللحود.

أماكن تعبّدهم باكية، ومواطن خَلَواتهم لفقدهم شاكية، زال التعب وبقي الأجر، وذهب ليل النَّصَبِ وطلع الفجر.

****

يا هذا! هوّن بأمر الدنيا تهُن، وقدّر أنها قَطُّ لم تكن، واحفظ دينك من مكرها وصُن، فمتى وَفَّتْ؟ ومتى لم تخُن؟

لا تلق دهرك إلا غير مكترثٍ ما دام يصحبُ فيه روحك البدنُ
فما يدوم سرورٌ ما سررتَ به ولا يَرُدُّ عليك الفائتَ الحَزَنُ

إنما الدنيا حلم نائم، وقائلة راقد، ومعبر معتبر، وضحكة مستعبر[1]، تالله ما أُعجِبَ بمالها من نظر في مآلها، ولا بنى قصورها من عرف غرورها.

أما سمعتم منادي ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٥٩] أما ينذركم إعلام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢]؟ أما يفصم عُرى عزائمكم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: ١١] أما يقصُرُ من قصوركم ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] أما سمعتم هاتف العِبر ينادي ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؟ إذا رأيتم المبارزين بالخطايا قد اتسع لهم مجال الإمهال فلا تستعجل لهم ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، بينا القومُ على غرور سرورهم ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] يا سالكي سبيلهم انحرفوا عن هذه الجادّة.

يا هذا! ظلمك لنفسك غاية في القبح، إلَّا أن ظلمك لغيرك أقبح.

ويحك! إن لم تنفع أخاك فلا تؤذه، وإن لم تُعطه فلا تأخذ منه، لا تشابهنّ الحيّة، فإنها تأتي إلى الحَفْرِ الذي قد حفره غيرها فتسكنه، ولا تتمثلنّ بالعُقاب، فإنه يتكاسل عن طلب الرزق، ويصعد على مرقب عال، فأي طير صاد صيدًا اتّبعه، فلا تكون له همّة إلا إلقاء صيده والنجاة بنفسه.

---

(١) المستعبر: الباكي.

في الحيوانات أخيار وأشرار كبني آدم، فالتقط خير الخِلال، وخلِّ خسيسها، ولا تكن العصافير أحسن منك مروءة، إذا أوذي أحدُها صاح فاجتمعن لنصرته، وإذا وقع فرخها طرن حوله يعلّمنه الطيران.

يا هذا! تخلّق في إعانة الإخوان بخلق النملة، فإنها قد تجد جرادة لا تطيق حملها فتعود مستغيثة بأخواتها، فترى خلفها كالخيط الأسود قد جئن لإغاثتها.

هيهات إن الطبع الرديّ لا يليق به الخيّر، هذه الخنفساء إذا دُفنت في الورد لم تتحرك، فإذا أُعيدت إلى الروث رتعت، وما يكفي الحية أن تشرب اللبن حتى تمجّ سمّها فيه، وكلٌّ إلى طبعه عائد، إلا أن الرياضة قد تزيل الشر جملة، وقد تخفف، إن دُمت على سلوك الجادّة رجونا لك الوصول، وإن طال السُّرى.

يا هذا! إذا لم تطق منازلة الحرب فكن من حرّاس الخيم.

إذا رأيت الباب مسدودًا في وجهك، فارض بالوقوف خارج الدار مع السؤّال.

إذا لم تُظفرك الحروب فسالم، أترى يصلحُ هذا القلب بعد الفساد؟ أترى يتبدل بالبياض هذا السواد؟ كم أقول: عسى أصْلحُ ولعلَّ؟ وكلما استوى قدمي زلّ، كم تتغير الأحوال وما أتغير! كم تتضح لي الطريق وأتحيّر!

لله أَمْــرٌ مــن الأيــام أطلبــهُ ... هيهات أطلبُ شيئًا غير مطلوب

إلى كم تقول سأتوب؟ متى يخجل اللسان الكذوب؟

اجتمعت أحزان القوم على القلوب فأوقدت حولها نار الحذر، وكان الدمع صاحب الخبر فنمّ.

سارت نجائب الأعمال إلى باب الجزاء فصيح بالدليل ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٧٤] فقال: **«ما منكم من أحدٍ يُنْجِيهِ عمله»**(١).

إن كنت تنوحُ يا حمامَ البانِ ... للبينِ فأين شاهدُ الأحزانِ

أجفانُكَ للدموع أم أجفاني ... لا يُقبل مدّعٍ بلا برهان

* * * *

يا من أنفاسه محفوظة، وأعماله ملحوظة، أتنفق العمر النفيس في نيل الهوى الخسيس؟

جدَّ الزمانُ وأنت تلعبُ ... والعمرُ لا في شيء يذهبُ

كمْ كم تقول غدًا أتوبُ ... غدًا والموت أقربُ

كم من مستيقظ وقد فات الوقت، ينظر إلى نفسه بعين المقت، ويصيح بنصيحهِ لقد صدقت، كم قَدِمَ إلى القبور قادمٌ! كلُّهم على فراش الندم نادم.

---

(١) متفق عليه.

يا عُبيْد فِلْسِه! يا عدو نفسه! ويحك! أتبحث عن حتفك بظُلفِك؟ وتجدع بسيفك مارن(١) أنفك؟

ما أكرم نفسه قط من لم يُهنها، فاحذرها فكلّ ما يجري عليك منها، حاسبها قبل يوم الحساب وزِنْها، وخَفْ شَينَ شَينها إن شئت عِزَّهَا وزِنْها، من طلب المعالي سهر الليالي، لولا صبر المُضَمَّرِ على قلّة العَلف ما قيل سبّاق.

إن العُلى مقيداتٌ بالسُّرَى هَوِّنْ في الليل عليها الغَرَرا(٢)
حتى تخيَّلْنَا الحجولَ الغُرَرا فركبت بسوقِها رؤوسَها
ذليلةٌ أنْ تستطيب السهرا عَلِّمْها النوم على رباطها
تقول: كل الصيد في جوف الفَرَا(٣) قد تركت مَطْمَعَهَا لشوقها

سينقشع غيم التعب عن فجر الأجر، كم صبر بشر عن شهوة حلوة، حتى سمع كلمةً حلوة «كل يا من لم يأكل»(٤).

ما مُدَّ سِجافُ(٥) ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٤٤] على قُبَّةِ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ [ص: ٤٣] حتى جُرِّب في أمانة ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾ [ص: ٤٤].

(١) المارن: ما لان من الأنف.
(٢) الغرر: الخطر.
(٣) الفَرَا: حمار الوحش.
(٤) بناء على رؤيا منامية.
(٥) السجاف: الستر.

من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه.

* * * *

نُعِدُّ المشرفَيَّة والعوالي وتقتُلنا المنون بلا قتالِ
ونرتبط السوابق مُقْرِباتٍ وما ينجين من خَبَبِ الليالي
نصيبُك في حياتك من حبيب نصيبُك في منامك من خيال
يُدفّن بعضُنا بعضًا وتمشي أواخُرنا على هام الأوالي
وكم عينٍ مُقَبَّلَةَ النواحي كحيلٍ بالجنادل والرمال(١)

لقد وعظ الزمان وما قصّر، وتكلّم الصامت وما أقصر، ولاح الهدى وإنما الشأن فيمن أبصر، ونطقت المواعظ بزجرٍ لا يُحصر، هلكت ثمود بصيحة وعادٌ بريح صرصر، وكُسِرَ كسرى وقُصِرَ قيصر، تالله ما يبالي ميزان الجزاء أرْبَحَ أم أخسر.

أيها المتحرك في الدنيا! لابد من سكون، لا يغرنّك سهلها فبعد السهل حُزون.

إنما الدنيا بلاءٌ ليس للدنيا ثبوتُ
إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت
إنما يكفيك منها أيها الراغب قوت

يا من عاهد على الطاعة في الإعلان والإسرار! كيف استحللت حلَّ

(١) الجنادل: الحجارة.

عَقْدِ التوبة، وعَقَدَ الإصرار؟ كم بينكم وبين المتقين الأبرار؟ ملكتكم الدنيا وملكوها فالقوم أحرار، واأسفى! متى رحلوا؟ ليت شعري أين نزلوا؟

مالت بالقوم ريحُ السحر ميل الشجر بالأغصان، فهزّ الخوف أفنان القلوب، فاللسان يتضرع، والعين تدمع، والوقت بستان.

* * * *

إخواني! أين الذين سَلَبُوا؟ سُلِبوا! طال ما غَلَبوا فَغُلِبوا. عمّروا ديارهم فلمّا تمّت خرّبوا.

كُلُّ حيٌّ فقصاراه الأجل ... ليس للخلق بذا الموت قِبَلْ

جُزْ على القبور بقلب حاضر، وسَلْها ما فعل الوجهُ الناضر؟ ثم خاصم نفسك على التواني وناظر.

كم صاح بك واعظ! وما تسمع، وكم حصّلت ما يكفي! ما تقنع، لقد استقرضك مولاك مالَكَ فما لك تجمع؟ وضَمِن أن نبت الحبّة سبعمائة وما تزرع!

إخواني! غرقت السفينة ونحن نيام، أبوكم لم يُسامَحْ في لقمته، فالبدار يا عاصٍ! منادي القبول على منازل الوصول يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

الغيم رطبٌ يُنادي ... يا غافلين الصَّبوحُ

فقلت أهلًا وسهلًا ... ما دام في الجسم روح

قد قيّد الطرد قدميك، وغلّ الإبعاد يديك، أفمالك عينٌ تبكي عليك؟

على نوحٍ نحتُ السفينة، وأن يصيح اركبوا، فما ذنبه أن تخلف فلان؟

إخواني! ما قعودكم وقد سار الركب؟ الحقوهم في المنزل، النجاء النجاء من شرّ الخِلاف[1] الوَحَا الوحا[2] قبل لحاق الأسلاف، الحذر الحذر من خطوات الخطايا، الهرب الهرب قبل بتّ الأماني بالمنايا، قبل أن تنزلوا الكِفات[3] وتلحقوا الرفات.

* * * *

عباد الله! إنما الأيام طُرُق الجدّ، والساعات ركائب المجد، وأيام العافية أوقات تستدرك، وأحيانُ السلامة تنادي: من جَدَّ أدرك.

كم للمنية من ضُروب	بين الحوادث والخطوب
تدع الحبيب بلا مُحِبٍّ	وكذا المُحبُّ بلا حبيب
لا والذي هو قاذفٌ	بالحقّ علام الغيوب
وبُحكمه يُملي لمن	يُملي القبيح على الرقيب
ما للنفوس مع المنيّة	في السلامة من نصيب
هيهات أين يفوتُها	لا بد من سهم مصيب

(١) الخلاف: التخلف.

(٢) الوحا: السرعة.

(٣) الكفات: القبر، والرفات بقايا العظام.

إخواني! احذروا دنياكم فإنها خادعة، وانتظروا حُتوفها فهي لا ريب واقعة.

أيها العبد! إلى متى تشتغل بها عن مولاك وهو غيور؟ أتظنُّ البقاء وقلائدُ الفراق كالأطواق في النحور؟ أما تعتبرُ بأقران قُرنوا بأعمالهم في القبور؟ أين هم الآن؟

يا قليل البضاعة! بل يا مفلس! ترجو النجاة بالمعاصي؟

كيف الرحيل بلا زاد إلى وطنٍ ... ما ينفع المرء فيه غيرُ تقواهُ
من لم يكن زاده التقوى فليس له ... يوم القيامة عذرٌ عند مولاهُ

يارب! إليك مِنَّا نتظلّم، أحوالنا تنطق عنّا وما نتكلّم، وقلوبنا من ذنوبنا تبكي وتتألم، وأنت العليم الذي لا يُعلَّم.

الموت في كلِّ حينٍ ينشر الكفنا ... ونحن في غفلةٍ عما يُراد بنا
كأنَّ ما قد رأينا في أحبتنا ... من الرحيل ونأي الدار ليس لنا

تنبهوا يا نيام! كم ضَيَّعْتُمْ من عام! الدنيا كلها منام، وأحلى ما فيها أحلام، علام قتل النفوس علام؟ هل هو إلا ثوب وطعام؟ ثم يتساوى خزٌّ وخام(١)، ولذّاتٌ طيباتٌ وَوِخَامٌ(٢)، إنما يعرف الفُطناء لا الطّغام، آهٍ للغافل إلى كم يُلام؟ أما توقظك الليالي والأيام؟ أين سكان القصور

(١) الخز: القماش المنسوج، والخام: القماش قبل قصّه من القصّار.
(٢) الوخام: الطعام غير المستساغ.

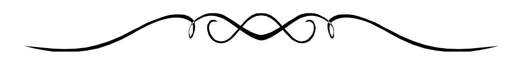
والخيـــام؟ دارت عـــلى الكـــل كـــأس الحِـــمام ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]

إلى متـى مزاحمـة الأنعـام؟ ردوا هـذه الأنفـس بزمـام، ازجـروا هـذه القلوب عن الآثام، أقرؤوا صحائف العبر بألسنة الأفهام، يا من أَجَلُه خلفَهُ وأملُهُ قُدَّام، رُبَّ يوم له مفتاح ما له ختام.

يا مقتحمًا على الحرام! ستعلم من يبكي في العُقْبَى عُقبى الإجرام، يا من إن قعد فللدنيا وكذا إن قام! أولُ الدنيا همٌّ وآخرها موت زؤام(١)، حَلَّ لها الفراق وحُرِّم عليها الدوام، خَلِّها واخرج عنها بسلام إلى دار السلام، فالجَنَّةُ رخيصة ثم ما تغلوا على مُسْتَام.

خذها إليك نصيحة من طبٍّ(٢) يداوي الأسقام، يضعُ الهناء موضع النقب(٣) ويعرف أصل الآلام، ويُركب المرهم عن خُبْرٍ، ويديرُ كيف شاء الكلام، ما بعدها نصيحة تكفي والسلام.

والحمد لله عدد أنفاس أهل الجنّة، وصلواته على محمد وآله وسلم وشرَّف وبارك وكرَّم.



(١) الزؤام: العاجل السريع.

(٢) طب: طبيب.

(٣) الهناء: القطران، النقب: الجرب.